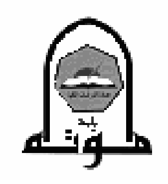


جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

صورة المجتمع الشامي في الدولة المملوكية الأولى نثراً
648هـ-783هـ/1250م-1381م

إعداد الطالبة
سميرة عبد اللطيف علي ذياب

إشراف:
الأستاذ الدكتور سمير محمود الدروبي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليـــــا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجـــــة
الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2007

الإهداء

إلى من أحب العلم وزرعه فينا والدي

إلى صاحبة القلب الكبير والدتي

إلى حليفي الشجاع ورفيق دربي زوجي

إلى قرة العين وزينة الدنيا خالد

إليهم جميعا أهدي هذا الجهد المتواضع حباً وعرفاناً وتقديراً

سميرة ذياب

الشكر والتقدير

الحمد والشكر العلي القدير الذي أعانني على إتمام هذا العمل، ثم الشكر متواصلا إلى جامعة مؤتة التي أتاحت لي الفرصة لإكمال دراستي فيها، ثم يقتضيني واجب الاعتراف بالفضل أن أتقدم بالشكر الجزيل لصاحب العقل النير الذي أغدق علي علما فكان نبراساً أنار لي دربا من دروب الحياة لأستاذي الفاضل الدكتور سمير الدروبي الذي تفضل علي بالإشراف والتوجيه، وتقديم النصح والإرشاد مما كان له الأثر الكبير في دعمي وتشجيعي طيلة مراحل عملية البحث فله عظيم الشكر والامتنان على كل ما بذله من أجلي، وكل الشكر لصرفه الوقت الطويل من خلال إشرافه على هذا العمل المتواضع وإغنائه بعظيم تجربته.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل: الأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم، والأستاذ الدكتور ماجد الجعافرة، والأستاذ الدكتور فايز القيسي لتفضلهم بمناقشة هذا العمل وتحملهم عبء قراءته، بتسامح العلماء المقتدرين وتواضعهم، وإغنائه بعصارة خبرتهم.

وا أسأل أن يكون عملي خالصا لوجهه تعالى، وا الموفق فيما نقصد وما نعمل.

سميرة ذياب

فهرس المحتويات

الملخص

صورة المجتمع الشآمي في الدولة المملوكية ألأولى نثراً

648 هـ، 1260م- 784هـ، 1382

سميرة عبد اللطيف ذياب

جامعة مؤتة، 2007

تأتي هذه الدراسة للتعرف إلى صورة المجتمع الشآمي في الدولة المملوكيـة الأولى من خلال المؤلفات النثرية التي وصلت إلينا.

وتتكون الدراسة من ثلاثة فصول الفصل الأول: تناول عناصـر الـسكان، والفصل الثاني: عرض الوظائف والحِرف، وتحدث الفصل الثالـث عـن بعـض المظاهر الحياتية من الدولة المملوكية.

وعلاوة على ذلك، فإن المؤلفات النثرية قد كشفت لنا عـن صـورة هـذا المجتمع في هذا العصر، وعلاوة على ذلك مقابلة مـا ورد فيهـا مـع المـصادر التاريخية والأدبية المعاصرة.

Abstracts

The image of sham community in the first period Mamlukian

Sameera Abd Allateef Ali Diab

Mu'tah University, 2007

This study aims to show the image of sham community in the first period Mamlukian through prose writing profiles to present day.

This study clouds three chapters :

1. The First chapter talks about the I teams of population .
2. The Second chapter shows jobs and skills.
3. The Third chapter talks about some sides of life in Mamlukian state.

In addition of that the prose writing profile discovered the image of environment in this stage according to comparing with has been included in it with historical resources and modern arts .

الفصل الأول

عناصر السكان في المجتمع الشامي

1.1 المقدمة

الحمد   ولاءً لذاته، وإقراراً بنعمته، نحمده لما رزق، ونشهد أن لا إلـه إلا ا   وحده لا شريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله عليه أفضل الـصلوات وأتم التسليم، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد :

تلمست خيوط موضوعي " صورة المجتمع ي في الدولة المملوكية الأولـى نثراً" منذ اقترحها مشرفي الأستاذ الدكتور سمير الدروبي، فقد مررت فـي أثنـاء مطالعاتي عن هذا العصر، بعدد من النصوص لفتت انتباهي، إذ وجدت فيها ارتباطاً بين الأدب و المجتمع.

واخترت بلاد لأنها مهد لحضارات متعددة منذ القدم، ومن خلالهـا قطعـت هذه البلاد مراحل واسعة في التقدم الحضاري حتى صار لها حضارتها المميزة بين الحضارات الأخرى.

أما اختياري للعصر المملوكي فلأنه يعد من أهم العصور التي مر بها العالم الإسلامي، للطابع الخاص الذي تميز به، والسبب في ذلك، أن دولة المماليك نـشأت في أجواء متلبدة بغيوم الحرب والدمار والاضطراب.

وتتناول هذه الدراسة صورة المجتمع ي في الدولة المملوكية الأولى، خـلال حقبة امتدت ما بين سنين 648هـ/1260م – 784هـ/1382م، أي مـا يقـارب قرناً ونصف، وقد كانت تلك الحقبة غنية بأحداثها العسكرية والسياسية، التي أثـرت في المجتمع الشآمي.

ومن الصعوبات التي واجهت هذه الدراسة:

1- قلة الدراسات حول صورة المجتمع ي في العـصر المملـوكي، لأن بعـض المؤرخين رأوه عصراً مظلماً، وعصر انحطـاط، وآخـرين وصـفوا إنتاجـه بالضعف والركاكة والتقليد، لذلك ابتعدوا عن دراسته، لكن مهمـا كـان ذلـك العصر لا بد من دراسته ولا عذر لإهمال الدارسين له.

2- صعوبة المؤلفات النثرية نفسها التي يلفها الغموض أحيانا مما يصعب فهم مـا وراء أسطر كل منها.

3- صعوبة الحصول على بعض المصادر والكتب التي تناولت الموضوع .

ومهما كانت تلك الصعوبات إلا أنها تسببت في كتابة هذه الدراسة عن سكان بـلاد، برهن أهلها أنهم أقوى من الحروب والمحن والكوارث التي تعرضـوا إليهـا، وحاولوا على الرغم من ذلك أن يساهموا في بناء الحضارة، صامدين في وجـه الأعداء والكوارث، رافعين رؤوسهم ليظلوا عزيزين في بلادهم، ومحافظين على مجتمعهم قويا، ومستمراً .

وتمكنت من الاطلاع على كتابات الباحثين الذين تناولوا بعض الموضوعات التي لها علاقة بموضوع دراستي، فرأيتها خدمت العصر المملوكي خدمـة جليلـة تحسد عليها، ومن أبرز من كتب فيه: محمود رزق سليم، فوزي أمين، عبد المـنعم ماجد، محمد زغلول سلام،... لكنني وجدتهم جميعا لم يمروا بصورة المجتمع ي إلا لماماً، حين يتعرضون بالحديث عن بيبرس، أو عن أعمال المماليك في الشآم .

وقسمت الدراسة إلى ثلاثة فصول هي :

الفصل الأول : عناصر السكان في المجتمع المملوكـــــي.

الفصل الثاني : الوظائف والحرف في المجتمع المملوكي.

الفصل الثالث : من مظاهر الحياة في المجتمع المملوكـي.

ولا أكتم سراً إذا قلت أنني أحببت هذا الموضوع وكيف لا أحبه وقد لازمني بضع سنين، وكان سلوتي وأنسي في السنين السابقة ؟

وما دراستي هذه إلا دراسة فيها من نقص البشر، وتحتـاج إلـى الفحـص والنظر، فإن وجد الباحث فيها شيئا فهو من هؤلاء القدماء الذين صـدقوا فـي مـا عاهدوا ا ، وإن لقي غثاء فهو من قصوري، وا الموفـق فيمـا عملـت وممـا قصدت.

1.2 تمهيد

اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تصنيف العناصر السكانية، فمنهم من لا يرى غير عنصرين، كما هو الحال عند ابن خلدون، وقد أشار إلى ذلـك فـي مقدمتـه المشهورة، فذكر أن الملك سلطان ورعية "فالسلطان من له رعية: والرعية من لها سلطان "[1] .

ونحا هذا المنحى المؤرخ لين بول، فأشار إلى عنـصرين كبيـرين: أولاهما عنصر المماليك وهي أقلية عسكرية، وثانيهما عنصر يمثـل سـائر فئـات الشعب، وهو محروم من كل نفوذ وبعيد عن الحكم، وليس بيده غير بعض الوظائف الدينية والقضائية، وعليه العمل في فلاحة الأرض ودفع الضرائب [2]

ومنهم من قسم المجتمع إلى عدة عناصر كالمقريزي الـذي صـنفه سـبعة عناصر: الأول أهل الدولة من المماليك، الثاني أهل اليسار من التجـار، والثالـث متوسطو الحال من السوقة والباعة، والرابع أهل الفلح، والخامس الفقـراء وطـلاب العلم،والسادس أرباب الصنائع وأصحاب المهن، والسابع ذوو الحاجة والمسكنة .[3]

وكان سكان في عهد الدولة المملوكية لا يختلفون عن سكان مصر كـونهم يخضعون لأسرة حاكمة احتكرت الوظائف، وحرمتهم المشاركة فـي إدارة أمـور بلادهم، وكان المماليك في بلاد هم أصحاب السيادة والطبقة المهيمنة على الـسلطة والنفوذ، وخضع أصحاب البلاد من أهل للواقع القائم وقبلوا بسياسة المماليك.[4]

وقسم شوقي ضيف المجتمع ي إلى ثلاثة عناصر: عليـا ووسـطى ودنيـا، العنصر الأول يشمل الحكام وكبار الموظفين في الدواوين وأصحاب الثراء الطائـل

---

[1] ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ /1406)، المقدمة، المطبعة البهية، القاهرة، ط1، ص 148.

[2] باشا، عمر موسى، أدب الدول المتتابعة، عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر الحديث، لبنان، ط1، 1967، ص62.

[3] المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م)، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، لجنة التأليف والنشر، القاهرة،ط2، 1957 ،ص 72-73

[4] الزيدي، مفيد، العصر المملوكي موسوعة العصر الإسلامي، دار أسامة، عمان،ط1، 200 ، ص197.

من التجار والإقطاعيين، ويشمل العنصر الثاني العلماء وأوساط الفلاحين والتجـار والصناع، أما العنصر الثالث يشمل صغار الفلاحين والعمال.(1)

ومما سبق يمكن تقسيم العناصر السكانية فـي المجتمـع ي إلـى الأمـراء، والأجناد، وأرباب القلم والتجار، والحرفيين، والفلاحين، والزعر، والبدو، والعشير، والمرأة.

وتواجد المجتمع الشآمي في بلاد الشآم الذي قسم إلى عدة نيابات هي: نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة صـفد، ونيابـة الكـرك، ونيابة غزة، ونيابة بيت المقدس، وتبع كل نيابة من نيابات بلاد الشآم الرئيسية عدد من النيابات والولايات الصغيرة.(2)

1.2.1 الأمراء

الأمراء جمع مفردها أمير، وهو الملك لنفاذ أمره بين الإمـارة والأمـراء(3) وإذا قلد الخليفة أميراً على إقليم أو بلد كانت إمارته على ضربين عامـة وخاصـة، فأما العامة فعلى ضربين: إمارة استكفاء بعقد عن اختيار،وتكون برضـا الخليفـة، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار، وتكون بالإجبار والغصب عن طريق الحـرب والقتال.(4)

وأصل الأمراء من معتوقي المماليك، الذين سمت بهم همتهم وحظهـم، إلـى مرتبة الإمارة. ولكل واحد من هؤلاء إقطاع يمنحه فيستغله وفق هواه، أو يتناول منه مالاً معيناً. ويتغير إقطاعه، ويعطى أوسع منه، كلما ترقى. ويـرد الإقطـاع إلـى السلطان ليمنحه لأمير آخر، إذا توفى صاحبه أو عطل.

---

(1) ضيف، شوقي، أدب الممالك والدويلات، دار المعارف، القاهرة، ط1،ص523.

(2) القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ / 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، عالم الكتب، القاهرة، 1963، ج4/ ص14.

(3) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م) لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1994، مادة أمر.

(4) الماوردي، ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ/ 1058م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة،1909،ص51.

ويعد الأمراء جميعاً أعضاء عاملين في الجيش، إلا من غضب عليه السلطان منهم، فنفاه وجعله عاطلاً بلا عمل، ولكل أمير رئاسة على عدد من الجنـد حـسب مرتبته.(1)

مما سبق يمكن القول إن الدولة المملوكية ضمت عدداً من الأمـراء، وكـان لهؤلاء الأمراء دور هام في الجيش المملوكي، يتمثل بعدد من الجند الـذين يـؤمر عليهم كل أمير، وحسب هذا العدد تكون مراتب الأمراء .

ومراتب الإمارة، هي :

1.1.2.1 أمير المئة:

تعد هـذه الـرتـبة أعـلـى مـراتب الأمـراء، وله إمـرة مـئة فارس مـمن يشتريهـم بمال إقطاعه ، ومن صلاحيـاته قيادة ألف جندي ممن هم دونـه من الأمراء، في حالة الحـرب مـن جـنود الحـلقـة، وكان الـواحـد منهـم يخـاطب في دمـشق بالجـناب العـالي(2)، ومن هؤلاء الأمـراء يكون أكـابر موظـفي الدولة، والنواب وينتخب الـسلطان مـنهم(3).ويعـد كل أمـيـر مـن أمـراء المئة سلطاناً مختصراً في غالب أحـوالـه، ولـكل منـهـم بيـوت خدمة

---

(1) سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، دار الحماضي، القاهرة،ط1 1985، ج5 ص84.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، عالم الكتب، ج4، ص14؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/ 1441م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم ومديحه الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1997م، ج3، ص70؛ السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ / 1505م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،ط1، 1968، ج2، ص129؛ ضومط، أنطون خليل، الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة، بيروت، ط2، 1982، ص61؛ طرخان، إبراهيم، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي،القاهرة،ط1، 1968 ص158؛ عاشور، فايد حماد، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، مصر، ط2، 1975، ص15 ؛ العريني، السيد الباز، المماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1967،ص 148.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص14؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج 3، ص70 ؛ضومط الدولة المملوكية، ص61.

كبيوت خدمة السلطان من الطُّشْت خاناه(1)، والفراش خاناه(2)، والركاب خاناه(3)، والمطبخ (4)، والطبلخاناه(5).

أما بالنسبة لأعداد أمراء المئة فلم يكن ثابتاً طيلة العصر المملوكي، فمن السلاطين من أنقص عدد الأمراء، ومنهم من زاده تبعاً لمشيئة السلطان، وشدة بأسه وحذره(6).

2.1.2.1 أمير الطبلخاناه:

هو أقل درجة من أمير المئة، ويأتي في الدرجة الثانية من حيث الترتيب العسكري المملوكي، ومن صلاحياته قيادة ما بين الأربعين والسبعين فارساً، وعدة كل أمير منهم في الدولة المملوكية الأولى أربعون مملوكاً(7)، ومن هذه الرتبة تكون الدرجة الثانية من أرباب الوظائف، والكشاف بالأقاليم، وأكابر الولاة(8).

---

(1) الطشت خاناه، مصطلح مكون من كلمتين، خاناه فارسية بمعنى البيت والطشت كردية أو سريانية، وهو إناء من نحاس لغسل اليد، ومعناها بيت الطشت، ويحتوي على كل ما يلبسه السلطان من الثياب أو السيف وغير ذلك، وفيها يكون ما يجلس عليه السلطان من المقاعد والمخاد والسجادات التي يصلي عليها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص10-11.

(2) الفراش خاناه، مصطلح مكون من كلمتين الفراش، وخاناه، ومعناها بيت الفراش، ويشتمل على أنواع الفرش كالبسط والخيام. القلقشندي، صبح الأعشى ج4، ص11.

(3) الركاب خاناه، مصطلح مكون من كلمتين، ومعناها بيت الركاب، وتشتمل على عدد الخيل من السروج، واللجم؛ وفيها من السروج المغشاة بالذهب والفضة المطلية، وغير ذلك من الأصناف التي يطول ذكرها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص12.

(4) المطبخ، المكان الذي يطبخ فيه الطعام. ابن منظور، لسان العرب، مادة طبخ.

(5) الطبلخاناه مصطلح مكون من كلمتين طبل وخاناه ، ومعناه بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات. القلقشندي، صبح الأعشى ج4، ص13.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 14؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص129؛ ضومط، الدولة المملوكية، ص61.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 15؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3، ص70.

(8) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص15.

3.1.2.1 أمير العشرة:

تأتي هذه الرتبة في المرتبة الثالثة من حيث الترتيب العسكري المملوكي، ومن صلاحياته قيادة ما بين العشرة والعشرين فارساً(1)، ومن هؤلاء الأمراء يعين صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف(2).

4.1.2.1 أمير الخمسة :

يأتي في الرتبة الرابعة، وهو أدنى رتب الأمراء، من حيث الترتيب العسكري المملوكي، ومن صلاحياته قيادة خمسة فوارس، وأكثر ما تقع هذه الإمرة فـي أولاد الأمراء الذين توفوا، وذلك تقديراً لآبائهم، وهم كأكابر الجند(3).

وكل أمير من الأمراء، السابق ذكرهم، قلد السلطان في اقتناء حرس خـاص من المماليك وتفاوت عـدد ممـاليكهم حـسب رتـبهم ووظـائفهم وثـرواتهم(4)، وينضاف إلى ذلك عدم ثبات عددهم طيلة العصر المملوكي فقد كان يزيد ويـنقص تبعا لمشيئة السلطان وشدة بأسه(5).

وكان السلطان يوزع الإقطاعات على الأمراء كأرزاق لهم، الإقطاعات جمع إقطاع ومصدره أقطع، والقطيعة الطائفة من أرض الخراج، وأصلها في الشرع مـا رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه بسنده إلى ابن سيرين عن تمـيم الـداري أنـه قال:"استقطعت رسول ا ، صلى ا عليه وسلم، أرضـاً بالـشـآم قبـل أن تفـتح فأعطانيها، ففتحها عمر بن الخطاب في زمانه فأتيته، فقلت إن رسول ا ، صلى ا

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص15؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3، ص70؛ ضومط، الدولة المملوكية،ص63؛ طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط، ص161؛ عاشور، العلاقات السياسية، ص15؛ العريني، المماليك، ص152.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص15.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص15؛ ضومط، الدولة المملوكية، ص63؛ طرخان، النظم الإقطاعية، ص162؛ عاشور، العلاقات السياسية، ص15؛ العريني، المماليك152.

(4) زيادة، نقولا، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرنكلين، بيروت، 1966، ص24؛ ضومط، الدولة المملوكية،ص61-63؛ عودات، أحمد؛ بيضون، جميل؛ الناطور، شحادة، تاريخ المغول والمماليك في القرن السابع هجري حتى القرن الثالث عشر، دار الكندي، اربد، 1990، ص153.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4،ص14-15؛ ضومط ، الدولة المملوكية، ص62.

عليه وسلم، أعطاني أرضاً من كذا إلى كذا، فجعل عمر ثلثها لابن الـسبيل، وثلثـاً لعمارتها، وثلثاً لنا"[1]

وقد ذكر القلقشندي أن الإقطاعات" في هذه المملكة تجري علـى الأمـراء والجند، وعامة إقطاعاتهم بلاد وأراض يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف يـشاء، وربما كان منها نقد يتناوله من جهات وهو القليـل، وتختلـف بـاختلاف حـال أربابها".[2]

إذاً من الإقطاع ما هي بلاد يستغلها المقطع ومنها ما هو نقد مقـرر علـى جهات[3]، وكان المقطع يحل في الإقطاع فيستغله فإذا توفي ينتهي الحلـول بوفاتـه وربما انتزع منه ومنح لآخر[4]، ونجد حالات خاصة لبعض إقطاعات التمليك التـي تنتقل بالوراثة للورثة مثلما حصل سنة 660هـ/ 1264م، عنـدما قـام الـسلطان الظاهر بيبرس[5] بتوزيع البلاد التي غنمها مـن الفـرنج علـى أمرائـه كـأملاك شخصية[6].

---

(1) ابن عساكر، ابن القاسم علي بن الحسن بن هبة ا بن عبد ا الشافعي(ت499هـ/571م)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محيي الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروري، دار الفكر العربي، بيروت،ط1، 1995، ج11، ص 68.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص50.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص50؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3، ص71-75.

(4) غوانمة، يوسف درويش، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، 1982، ص 74.

(5) بيبرس بن عبد ا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح الصالحي، ولد بأرض القبجاق سنة 625هـ /1227م، وحمل إلى القاهرة حيث اشتراه الملك الصالح نجم الدين، وبعد مقتل توران شاه ،هرب مع رفاقه إلى ، وبقي هناك حتى تولى قطز السلطنة، حيث عاد إلى القاهرة ،وبعد معركة عين جالوت تمكن من قتل السلطان قطز، وتسلطن بعده، وبقي في السلطنة حتى توفى سنة 676هـ/1277م. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1362م)، الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر،دار نشر فرانز شتاينر، بيفسبادن، 1962، ج1، ص329-348.

(6) عباس شافع بن علي (ت731هـ/ 1330م)،حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة أبو المحاسنة، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، مكتبة الرياض،الرياض، 1976، ص94؛ طرخان، النظم الإقطاعية، ص73؛غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص74-75.

ولا تعادل الإقطاعات ية الإقطاعات المصرية، بل تكون بقدر الثلثين مما تكون عليه في مصر ما عدا نائب السلطنة بدمشق فان إقطاعه يقارب إقطاع أكابر أمـراء مصر[1].

وحصل الأمراء على الإنعامات السلطانية كخلع التشاريف[2]، والخيول التـي يوزعها مرتين في كل سنة ، مرة عندما يخرج السلطان إلى مرابط خيوله في الربيع عند اكتمال تربيعها ، ومرة عند لعبه الكرة في الميدان[3]والكسوة ، وهي قباء يلبس

في وقت الشتاء[4]،والأموال المأخوذة من السلطان عنـد الزيـارة الـسنوية للسلاطين[5]، والأموال المجموعة من دورتهم السنوية التي كانوا يقومون بها علـى بلاد الريف[6].

ولذلك أثرى أمراء المماليك ثراءً فاحشاً حتى إن ثراء أمير واحـد كـان يعادل ثراء جميع العاملين في مدينة صغيرة [7]. وامتازوا بحيـاة مليئـة بـالترف والبذخ والرفاهية، فقاموا ببناء البيوت الفخمة [8]، التي زخرفت سقوفها وحيطانهـا بالذهب [9].

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص50 ؛ المقريزي ، المواعظ والاعتبار، ج3، ص71.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص52؛ والخلع وهي عبارة عن ثوب ينعم به السلطان على الأمراء، وقد كان في العصور السابقة للعصر المملوكي، وهي عبارة عن ثوب يلبسه الحاكم نفسه، ويعطيه كهدية، وبعد أن يخلعه من فوق جسده، وكان هذا التصرف بمثابة وعد شخصي بالأمان أكثر منه رمزاً للتكريم، ثم أصبحت خلعة التشريف في العصر المملوكي بمثابة إنعامات سلطانية، وهي على طبقات، لكل عنصر خلعة خاصة بها.

[3] المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3، ص72.

[4] القلقشندي، صبح الأعشى، جـ 4، ص55.

[5] اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت 760 هـ / 1358 م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1986م، ص 190.

[6] العيني، بدر الدين محمود (ت 855 هـ / 1451 م) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق : فهيم محمد شلتوت، دار الكاتب العربي، القاهرة 1966-1967م، ص 244 - 255 .

[7] لابدوس، إيرا مارفين، مدن في العصر المملوكي، دار حسان دمشق، ط1، 1985، ص93.

[8] ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي (ت 774 هـ / 1372 م) ، البداية والنهاية، تحقيق : أحمد أبو ملحم، علي نجيب عطوي، فؤاد السيد، مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 1987م، ج4، ص 138.

[9] السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب (ت 771 هـ / 1369 م)، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق : محمد علي النجار، أبو زيد الشلبي، محمد أبو العيون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1، 1947م، ص 50 .

2.2.1 الأجناد

الأجناد جمع ومعناها العسكر[1]، وهم العنصر الثاني من عناصر الـسكان، ويتوزعون على الفرق التالية:

1.2.2.1 المماليك السلطانية :

تعد هذه الفرقة من أعلى الفرق شأنا ومكانة لقربها من الـسلطان وأكثرهـا إقطاعا، ومنها يؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة ، ولم يكن عددها محدودا بل يترك ذلك للسلطان بحسب ما يفضله في الكثرة والقلـة[2]، وهـذه الفرقـة أسـاس الجـيش المملوكي، إلا أنها لم تكن موجودة في بلاد الشام [3].

2.2.2.1 أجناد الحلقة :

تكونت هذه الفرقة من محترفي الجندية مـن مماليـك الـسلاطين الـسابقين وأولادهم [4]، وهم عدد جم وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من أرباب القلـم بواسطة النزول عن الإقطاعات[5]، ووجدوا في مختلف نيابات الشآم [6].

3.2.2.1 أجناد الأمراء :

هم أجناد من مشتريات نائب السلطنة والأمراء في النيابات ويـضاف إلـيهم قوات أخرى من العرب والتركمان ولا تشكل هذه الفرقة إلا في حـالات الطـوارئ

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة جند .

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 15-16 .

(3) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص182.

(4) ماجد، عبد المنعم، نظم الدولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1967، ص 149؛ عاشور، العلاقات السياسية، ص17.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص16؛ شبارو، عصام محمد، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، بيروت،ط1، د. ت، ص136.

(6) الظاهري، خليل بن شاهين(ت873هـ/ 1468م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، المطبعة الجمهورية، باريس، 1894، ص104.

والحرب[1]، وشكلوا فرقا مستقلة عن باقي الفرق المملوكية من المماليك الـسلطانية وأجناد الحلقة وكانت تنقصهم التربية في " الطباق"، المكان الذي تربى فيه المماليك، ليتقنوا الفنون العسكرية فانحصر اهتمامهم بخدمة أمرائهم فقط[2].

4.2.2.1 أجناد البحرية :

هم فرقة كانت تبيت بالقلعة وحول السلطان عند سـفره وترحالـه وإقامتـه كالحرس، وأول من سماهم ورتبهم بهذا الاسم الملك الصالح نجم الدين أيـوب بـن الكامل[3]، في العصر الأيوبي[4].

وكان الأجناد في أثناء مرحلة التدريب يعطون الجوامك [5]، والجوامك لفظ فارسي مشتق من جامة بمعنى اللباس، أي نفقات أو تعويض اللباس الحكومي، وقـد ترد بمعنى الأجر أو الراتب أو المنحة، وهي جمـع جامكيـة [6]، وقـد ارتبطـت الجوامك بفرقة المماليك السلطانية في الدولة المملوكية [7]، ولم تكن قيمة الجوامـك ثابتة، حيث كانت بداية ثلاثة دنانير ثم خمسة ثم سبعة ثم عشرة دنانير[8].

---

(1) الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص105.

(2) ضومط، الدولة المملوكية، ص65؛ شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص136.

(3) الكامل، نجم الدين أيوب ابن السلطان الكامل محمد بن السلطان الملك العادل محمد بن أيوب، ولد سنة 603 هـ وتوفي سنة 647 هـ ، و اخفي خبر و فاته حتى حضر ولده توران شاه من حصن كيفيا و ملكوه بعده . الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج10، ص56 .

(4) القلقشندي، صبح الأعشى: ج4، ص16؛ العريني، المماليك، ص55 .

(5) عاشور، سعيد عبد الفتاح، الأيوبيون والمماليك في مصر و، دار النهضة العربية للنشر، القاهرة، ط1، د.ت ص 369.

(6) دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط1، 1990، ص51.

(7) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج18، ص50.

(8) طرخان، النظم الإقطاعية ،ص163؛ عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص369.

وأرغمت الدولة الأمراء على إعطاء ثلثي دخولهم لأجنادهم ، وذلك إما أرضاً تحرث وتزرع، وإما نقداً من غلة السنة، فلا يمكن للأمراء أن يشاركوا أحـدا مـن الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم[1]، ولكن الأمراء لم يلتزموا بذلك، وهذا الأمر دفع السلطان إلـى تقرير قانـون يقضي بجعل الإقطاعـات مناصـفة بـين الأمـراء ومماليكهم[2] وكان انقطاعها يعد سببا للثورة [3].

3.2.1 أرباب القلم

شمل هذا العنصر الـسكاني القـضاة، والعلمـاء، والمفتـين، والمدرسـين، والخطباء[4]، وهذا جعل بعض مصادر الدولة المملوكية يطلـق علـيهم مـصطلح (المتعممين) أو أهل العمامة[5]، لأن العمامة كانت السمة البارزة في ملابسهم تمييزاً لهم عن غيرهم من العناصر السكانية وخاصة عنصري الأمراء والأجناد[6] ، وهـم عنصر متميز من الشعب ، فقهت أمور الدين وتضلعت أحكامه، ونالت حظاً وافـراً من العلم و الثقافة ، فكسبت حب الطبقة الحاكمة واحترامها في معظم الأحيان .

ويمكن تبين فئتين في هذا العنصر: أولاهما وليت الوظـائف العامـة التابعـة للحكام كأمانة السر وديوان الإنشاء، وثانيتهما عكفت على العبادة، وشغلت مناصـب

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج3، ص71؛ بولياك، الإقطاعية، دار المكشوف، بيروت، ط1، 1948، ص27-28

(2) بولياك، الإقطاعية: ص 28 صومط، الدولة المملوكية: ص 119

(3) ابن طولون، محمد الصالحي الدمشقي(953هـ، 1546م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشآم) تحقيق: محمد مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1962م، ج1، ص208.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص255 –259؛ أشتور، آ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار قتيبة، القاهرة، ط1، ص413,414؛ لابدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص182.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص42؛ عاشور، المجتمع المصري، ص28 .

(6) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص42;، عاشور، المجتمع المصري، ص28 .

التدريس والقضاء والخطابة[1].

وكان المماليك قد ارتبطوا بأرباب القلم بحكم ميزاتهم المالية والإدارية، ولقوة تأثيرهم في نفوس الناس، إذ احتاج المماليك بعد تسلمهم الحكم إلى مساندة أرباب القلم أمام أفراد الشعب، فكانوا بمثابة الرابطة بين المماليك وبين عامة الشعب[2] .

وقد تمتع أرباب القلم باحترام السلاطين لهم[3]، وعلل بعض زعماء المماليك احترامهم لرجال الدين بأنهم عرفوا لهم دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون[4]، وحرصا من الدولة على تمييزهم والاعتناء بأمورهم جعلوا لهم مكانا في مجالس النواب، بحيث كان القضاة يجلسون فوق المقدمين، أما كاتب السر، وناظر الجيش فيجلسان دون المقدمين وفوق أمراء االطبلخاناه[5].

واستأثر أرباب القلم بالوظائف الدينية والديوانية العليا، مثل مناصب قضاة القضاء الأربعة، والحسبة، والوزارة ، وكتابة السر، وغيرها من الوظائف[6] لذلك عاشوا في سعة، ونعموا بمظاهر الحياة المترفة وكانوا يترددون على مجالس السلاطين والأمراء [7] الذين يقيمون لهم الولائم[8]، ويبادلونهم الهدايا [9] والزيارات[10].

---

(1) باشا، أدب العصور المتتابعة، ص67.

(2) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج15، ص338 قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص164؛ عاشور، المجتمع المصري ، ص28.

(3) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج12، ص102.

(4) عاشور، المجتمع المصري، ص25 .

(5) ابن الشحنة، أبي الفضل محمد (ت 890 هـ / 1485 م) ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984م، ص260.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص28-37.

(7) قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص164.

(8) ابن طولون، محمد الصالحي الدمشقي (ت 953 هـ / 1546)، إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق : محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق،ط2، 1984م، ص119.

(9) ابن طولون، محمد الصالحي الدمشقي(ت 953 هـ / 1546)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر و)، تحقيق : محمد مصطفى ووزارة الثقافة والإرشاد، المؤسسة المصرية، القاهرة، 1962م، جـ1، ص215

(10) ابن طولون، إعلام الورى ، ص171.

وعلى الرغم من أهمية أرباب القلم في العصر المملوكي إلا أن هذا لـم يمنـع بعض السلاطين والأمراء من التعرض لهم ونقدهم ، فلم يرض المماليك أن يـشاركهم أرباب القلم ركوبهم الخيل، فاشترطوا على السلاطين حرمانهم من ركوبها، وكثيرا مـا اعتدوا عليهم في الشوارع وأنزلوهم عن خيولهم وسرقوها[1]. وتعددت مـصادر رزق أرباب القلم، مثل الجوامك الشهرية والإنعامات المالية والعينية من السلطان[2].

يظهر مما سبق أن هذا العنصر كان على قدر مـن الأهميـة، فهـو واسـطة الاتصال بين المماليك من جهة وبين عامة الناس من جهة ثانية، وبقدر ما يتسلح هـذا العنصر من وعي لمصالح أهلها ومن تقى وورع، وكانت عوناً للمماليك، فإذا ما فقدت نزاهتها، كانت عوناً للمماليك على ظلم الناس، ولم يفسد هذا العنصر في دولة ما، بعد أن كانت صالحة في دولة سابقة، بل كان فيها من هو صالح، وإلى جانبه الفاسد الذي لا تهمه إلا مصلحته .

4.2.1 التجار

كانت بلاد مركزاً تجارياً بين بلاد العالم. وكانت التجارة تعـد المركـز الأول بالنسبة لاقتصادياتها، وأهم دعائم الثروة والمال، ويعود الـسبب فـي ذلـك لموقعهـا الجغرافي وتوسطها لدول العالم الإسلامي، وكانت التجارة قائمة بين بـلاد والتجـار الأوروبيين وخاصة الإيطاليين، الذين كانوا يحرصون على حسن العلاقات بينهم وبين الدولة المملوكية [3] .

---

(1) عاشور، سعيد عبد الفتاح، العصر المماليكي في مصر و، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 1976 ، ص 324، عاشور، المجتمع المصري، ص32.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص51.

(3) السيد، محمود، تاريخ عرب ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت، ص83.

حاز التجار مكانة متميزة في الدولة المملوكية ؛ لأن اقتصاد الدولة كان يعتمد اعتماداً كبيراً على التجارة [1]، ولأن التجار كانوا المصدر الأول للمال في الأزمات وأوقات الشدة ، فقربهم السلاطين[2] ، وولوهم بعض الوظائف في الدولة كالقضاء[3] ، والوزارة[4]، والحسبة[5]، ولكن غالب التجار كانوا يعاملون كسائر أبناء الشعب فكانت الضرائب تفرض بكثرة عليهم غير أن بعض السلاطين كانوا يعفون الناس منها في بعض الأحيان تأليفاً لقلوبهم[6].

وقام التجار بدور رئيسي بما يملكون من أموال في تنشيط التجارة الخارجية التي تعد مصدر التجارة الحقيقية لبلاد في الدولة المملوكية، أما التجارة بين ومصر، فقد نشطت القوافل التي كانت تحمل الحرير والعطور والتوابل بحيث كانت تحتل المركز الأول في الصادرات من بلاد الشآم ، كما كانت البلاد الشآمية تقوم بدور الوسيط في نقل البضائع التي ترد إليها من بلاد الشرق مثل الحرير الصيني، والتوابل من الجزيرة العربية ومن غيرها، ثم تقوم بتصديرها إلى أنحاء العالم[7].

وقسم المقريزي التجار إلى ثلاثة أقسام هم: أهل اليسار، والباعة وهم متوسطو الحال وسماهم "أصحاب البر "، وأدناهم السوقة وسماهم "أصحاب المعايش"[8]. وتميز التجار برفاهيتهم ومستواهم المعيشي، فقد كانوا على جانب كبير من الغنى، واستطاعوا مضاهاة السلاطين والأمراء في البذخ على مساكنهم،

---

(1) ضومط، الدولة المملوكية، ص171.

(2) ابن حجر الععسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود الشافعي (ت 852هـ/1448م)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق، حسني حبشي، لجنة احياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1969م، ج1، ص365؛ عاشور، العصر المماليكي، ص324.

(3) أبو المحاسن، الجوم الزاهرة، ج16، ص326؛ لابدوس، مدن إسلامية، ص214.

(4) العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج2، ص191.

(5) الظاهري، زبدة كشف المماالك، ص41؛ ضومط، الدولة المملوكية، ص217؛ لابدوس، مدن إسلامية، ص197.

(6) باشا، أدب العصور المتتابعة، ص75.

(7) السيد، تاريخ عرب الشام، ص183، 184.

(8) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م)، اغاثة الامة بكشف الغمة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1956م، ص72، 83.

وملبسهم، ومأكلهم، واشتملت ثرواتهم على المال، والكروم، والبساتين، والأسـواق، والحمامات[1]. التجار بإقراض السلاطين مبالغ كبيرة مـن المـال، فقـد اسـتدان المنصور ستين ألف ألف دينار من أحد التجار[2]، وبنـوا المبـاني، كالخانـات[3]، ووسعوا على الفقراء عند الأزمات والكوارث من أمـوالهم[4]، وقـدموا الأمـوال لإطلاق سراح الأسرى المسلمين من أيدي الفرنج[5].

وحرصت الدولة المملوكية على الاهتمام بالتجار بطرق عدة ، كتأمين طرق المواصلات من خلال الاتفاقيات مع الدول الأوروبية المجاورة ، مثال ذلـك تلـك الاتفاقيات التي أبرمها السلطان بيبرس مـع الممالـيك الـصليبية فـي سـنوات 659هـ/1260م[6] [3]،665هـ/1266م،669هـ/1270م[7]، وحراسة الطرق، فقد أقطعت زعماء القبائل البدوية الإقطاعات مقابل حراستهم للطرق،مثلما حدث في عهد بيبرس[8].

ويضاف إلى توفير الأمن الداخلي والخارجي، قيام الدولة المملوكية بتـوفير الخدمات المرورية للتجار وقوافلهم أثناء سفرهم، فقامت ببناء الخانات على الدروب والجسور، وتعبيد الطرق للقوافل التجارية[9]، وعملت على تنظيم الأسـواق لتـوفر الراحة للبائع والمشتري، وكانت هذه الأسواق متخصصة، إذ خصص كـل سـوق لسلعة معينة[10]. شجعت الدولة المملوكية أيضاً إنشاء الوكالات التجاريـة للتجـار

---

(1) لابدوس، مدن اسلامية، ص199.
(2) أبو الفلاح، شذرات الذهب، ج5، ص441.
(3) العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج1، ص142.
(4) العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ج3، ص471.
(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص42.
(6) ابن عبدالظاهر محي الدين (ت692هـ/1292م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1976م، ص118- 152.
(7) المصدر نفسه، ص378-379.
(8) المصدر نفسه، ص164-165؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص94.
(9) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص69؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص89.
(10) غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص82.

الذين لا يصحبون تجارتهم، وليس لهم من يقوم ببيعها،بل تخزن هذه البضائع عنـد وكيل دار الوكالة، الذي كان يسوق هذه البضائع[1].

وسميت دار الوكالة في الدولة ية "دار الطعم " وتولاها شخص يدعى "شاد دار الطعم " ويعين من قبل النائب بتوقيع كريم كما يجنى المكوس، هي الضريبة، وكانت ممتدة في عصر الدولة المملوكية لتشمل كل شيء من التجار، ويكون برتبـة أميـر عشرة أو مقدم حلقة أو جندي[2]، ومهمته الرئيسية تخزين سـلع التجـار، وبيعهـا، وإيصال ثمنها لأصحابها[3]، ويتقاضى "شاد دار الطعم" مبلغاً مقابل خدماتـه التـي يقدمها لزبائنه التجار[4]، ثم تطورت الوكالات من مراكز التخزين إلـى مجموعـة أبنية، حيث يضم المبنى فندقاً ووكالةً وحماماً ومخبزاً [5].

واشتهرت فئة من التجار في العصر المملوكي عرفوا "بتجار الكارم "، وهم من كبار التجار الذين احتكروا تجارة الهند والشرق الأقصى من التوابل والسلع، وبداية ظهورهم كانت في العصر الفاطمي، وكانت عدن مركزاً لنشاط تجار الكارم ، إلـى أن انتقل نشاطهم من المحيط الهندي إلى البحر المتوسط، فأصبحت الإسكندرية هي مركز نشاطهم[6].

---

(1) فهمي، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب(أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المعتمدة العامة، القاهرة، ط1، 1973م ، ص287 ؛ ضومط، الدولة المملوكية، ص211؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص92.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص187.

(3)غوانمة، التجارة الدولية، ص326.

(4)غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص92.

(5) فهمي، طرق التجارة الدولية، ص287-288

(6) القوصي، عطية، أضواء جديدة على تجارة الكارم، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية، المصرية للدراسة التاريخية، 1975م، م22، ص18،17-26.

واهتمت الدولة المملوكية بتجار الكارم بحيث وظفت موظفاً يقوم على خدمتهم سمي "ناظر البهار والكارم "[1]، وقد كان لهؤلاء التجار رئيس يسمى "رئيس الكارمية " وكانوا يملكون أسطولا تجاريا مقره في مدينة قوص، وكانوا يعدون القوافل بأنفسهم ويحمونها بجند وخياله تعمل لحسابهم، وبذلك جنوا الثروات.[2]

وفرضت الدولة المملوكية الضرائب على التجار، وكانت تلك الضرائب تزداد أثناء إرسال الدولة التجاريد العسكرية للقتال، أو عندما يهاجم البلاد عدو خـارجي، وإضافة إلى ذلك فقد تعرض التجار إلى المصادرات لأموالهم دون وجـه حـق[3] ونتيجة لذلك لم يطمئن التجار في عصر الدولة المملوكية على أموالهم وتجارتهم، بل كانوا يدعون على أنفسهم أحياناً أن يغرقهم ا حتى يستريحوا مما هـم فيـه مـن الغرامات وتحكم الظالمين فيهم[4].

5.2.1 الحرفيون :

جمع حرفة وهي الصناعة، وحرفة الرجل صنعته، وهي اسم من الاحتـراف وهو الاكتساب، يقال هو يحرف لعياله بمعنى يكتسب من هنا وهناك[5].

يشكل الحرفيون عنصراً من عناصر المجتمع الشآمي، حيث استقروا في المدن الرئيسة، فأصبحت هذه المدن مراكز صناعية تسد حاجاتها، ووجدت بعض الحرف طريقها إلى الخارج[6].

وكان الحرفيون عنصراً له تقاليده الحرفية، وأعرافه الاجتماعية، فلكل حرفـة نقابة، وهذه النقابات تنظم علاقاتهم فيما بينهم، وعلاقاتهم مع غيرهم، ولذلك سـهل

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص32؛ ناظر البهار وهو الشخص المشرف على تجار الكارم.البقلي، التعريف، محمد قنديل، الهيئة المصرية، القاهرة، ص73 .

(2) لبيب، صبحي، التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مايو 1952م، العدد الثاني، المجلد الرابع، ص29؛ ضومط، الدولة المملوكية، ص215.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1 ، ص234، 296.

(4) عاشور، العصر المماليكي، ص324.

(5) ابن منظور، لسان العرب، مادة حرف.

(6) سوفاجيه، جان، دمشق لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى عهد الانتداب، تحقيق: أكرم حسن العلبي، د.ن، د.ب، ط1، 1989م، ص92.

التحكم بهم وتحريكهم، ويرأس كل نقابة كبير، يقوم على مـصالحها، اختلـف فـي تسميته، فقد ذكر في بعض الأحيان أنه "رئيس الحرفة "[1]، وفـي أحيـان أخـرى وصف بأنه "كبير الطائفة "[2] أو"عريف الحرفة " [3] أو "شيخ الحرفة"[4] .

وكان لهذه الحرف أسواق متخصصة، مسقوفة على نمط الأسواق الإسلامية في المدن الشآمية المختلفة[5]، وكان المسؤول عن انضباط وجودة التصنيع شخـصاً يدعى المحتسب، ونظراً لعدم استطاعته أن يكون خبيراً بشؤون كل صـناعة، فإنـه يختار من كل حرفة شخصاً يساعده على مراقبة أهل حرفته[6]، ويعد واسطة بـين أهل حرفته والسلطة المملوكية، فينقل شكاويهم ويدافع عنهم .

ويقدم العمال بهدف المشاركة في المناسبات الرسمية مثل: استقبال السلاطين، وتزيين الأسواق عند الاحتفالات[7]، وترتب عليه القيام بكتابة أسماء الرجال القادرين على المساعدة في الدفاع عن البلاد أثناء الغزو[8]، كما يقـوم بجمـع الـضرائب، والإشراف على أبناء حرفته من خلال رعاية المرضى والفقـراء،وتحديـد أجـور العمل، ومواصفات السلع وأسعارها [9] .

وللحرفيين تقاليد خاصة بهم، فكل حرفة تتـألف مـن معلمـين، وصـناع ، ومبتدئين، والشيخ الذي ينتخب من قبل معلمي الصنعة، يـشترط كونـه مـن ذوي الأخلاق الحسنة ومعرفة أصول الحرفة، ولابد من الموافقة عليه مـن قبـل شـيخ

---

(1) العسقلاني، الدرر الكاملة، ج1، ص77.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص21.

(3) ابن بسام، المحتسب (ت 884هـ/ 1474م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1968، ص13.

(4) العادل، فؤاد، المجتمع الشآمي، مديرية الثقافة الشعبية، دمشق، ط1، د.ت، ص16.

(5) الحنبلي، أبو اليمن مجيز الدين العليمي (ت 928هـ / 1521م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، بيروت، 1983م، ج2 ، ص304.

(6) ابن بسام، نهاية الرتبة، ص17-18؛ لابدوس، مدن إسلامية، ص168- 169.

(7) لابدوس، مدن إسلامية، ص168.

(8) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط1، 1986، ص211؛ لابدوس، مدن إسلامية، ص168.

(9) علي، القدس في العصر المملوكي، ص211.

المشايخ "شيخ الحرف كلها" بعد اختياره، ثم تقدم النصائح له عن كيفية إدارة حرفته والسهر على مصالحها من قبل الشيخ، الذي يشرف على ترفيع أفراد الحرفة، فيدعو إلى انتقـال أعضاء الحـرفة بعد إعلام الدولة بهذا الترفيع ليعرف مبلغ الضريـبة المستحقة عليه، ويتمتع هذا الشيخ بسلطات كبيرة يساعده في أدائها مجموعـة مـن النقباء يكونون بمثابة الواسطة بينه وبين مشايخ الحرف الأخرى[1].

وقد تعرض الصناع لمظالم المماليك، حيث استخدموهم قسراً في المهمـات التي كانوا يحتاجونها مثلما حدث عام 903هـ/1497م عندما خرج نائـب الـشام على رأس حملة وأمر الحرفيين، كالحجارين، والخراطين، والنجارين، والمعماريـة ببناء بيت أو ما شابه ، وفي عام 799هـ/1396م أرسل السلطان بطلب ما تحتاجه عمارته التي بناها في القاهرة من شبابيك وأبواب، مما اضطر الصناع للعمـل فـي دار السعادة مدة من الزمن حتى يتمكنوا من إنهاء المطلوب عليهم [2].

وعانى الحرفيون من الضرائب التي فرضتها الدولة، والتي تثقل كـواهلهم كالضرائب التي فرضت على الأفران والطواحين الدائرة بالبقر[3]،وأنوال الحياكة[4]، بالإضافة إلى الضرائب التي تؤخذ من الدباغين[5] .

ونتيجة لتعرض الصناع إلى الاضطهادات المملوكية، فقد كـانوا يتجمعـون ويقومون بالتكبير لرفع الظلم الذي كانوا يعانون منه، وأوجدت هـذه الاضـطهادات نوعاً من التآلف والتقارب بين هذا العنصر، وذلك مثل ما حـدث عنـدما فرضـت الدولة ضرائب عالية على أصحاب صناعة القماش الحريري سنة 798هـ/1491م

---

[1] الصباغ، ليلى، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، وزارة الثقافة، دمشق، 1973م، ص72-76.

[2] ابن طولون، مفاكهة الخلان: ج1، ص196-197؛ له إعلام الورى، ص107.

[3] العريني، الدولة المملوكية، ص200.

[4] التدمري، عمر عبد السلام، نصوص كتابات تاريخية على عمارة طرابلس الإسلامية في عصر المماليك (المراسيم السلطانية)، تاريخ العرب والعالم، مجلة منتصف كل شهر، بيروت، 1981، ص16-35.

[5] ابن الجيعان، بدرالدين أبو البقاء محمد بن يحي بن شاكر بن عبد الغني (ت902هـ/1496م)، القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، تحقيق: عبد السلام تدمري، منشورات جروس برس، طرابلـس ، ص56.

فقد اجتمعوا وحملوا الأعلام في المساجد وكبروا عند دار السعادة لرفـع الإجحـاف الذي وقع علـيهم[1].

وينضاف إلى سوء المعاملة التي وقعت على الحرفيين تعرضهم لـضربة أدت إلى خفض مستوى الصناعة في بلاد ، وبالتالي إلى انهيارها ألا وهي أخذ تيمورلنك العمال والحرفيين من كل نوع أثناء عودته من بلاد سـنة 803هـ ـ/1400م[2]، ولكي يزداد الأمر سوءاً فان الأمراض تضافرت في الفترة نفسها لتزيد من مآسـي الناس وتـشل حـركـة الاقتصاد الممـلوكي، ومـن هـذه الأمراض الطـاعون، والآفـات الزراعية [3].

6.2.1 الفلاحون :

ويعد الفلاحون عنصراً من عناصر المجتمع الشآمي المملوكي، وهم الغالبية العظمى من سكان البلاد[4]، اتصفوا بالهدوء والاستقرار، إذا لم يقوموا بأي نوع من الشغب، أو مساندة الثورات التي كانت تقوم بين حين وآخر[5]. شكل مجتمع القريـة مجتمعا متكاملاً متناسقاً، فقد وجد في كل قرية شيخ أو أكثر، كانت عليه مـسؤولية حفظ النظام فيها، إذ كان هو المسؤول أمام السلطة المملوكية، ويتوقف علية فـض الخلافات التي كانت تقوم بين الفلاحين، وتعتمد الدولة عليه في جمع الضرائب مـن الفلاحين[6].

واحتوت كل قرية على خطيب وفقيه يعين من قبل نائب السلطة، بهدف تعليم أهلها أمور دينهم، وتعلـيم أطفالهـا القـراءة والكتابـة، ويقـوم علـى حراسـة

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص146.

(2) ابن عربشاه، أبي العباس أحمد بن محمد الدمشقي(ت 854هـ/ 1450م)، عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق:أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1986م، ص293-294؛ لابدوس، مدن الشام ، ص68.

(3) المقريزي، إغاثة الأمة، ص75؛ ضومط، الدولة المملوكية، ص177.

(4) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص104-105.

(5) عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص312-313.

(6) غوانمة، يوسف حسن درويش، القرية في جنوب الشام ، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، ط1، 1983، ص89.

القرية(الحارس)، ومن مهامه الأخرى حفظ ممتلكات سكان القرية، وتنبيـه النـاس عندما تشب الحرائق وهم نائمون، وهناك من يقوم بحراسـة البـساتين والمـساكن الموجودة خارج القرية ويعرفوا باسم (الطوفية)[1].

واغتنم الفلاح وجود الأسواق لتسويق إنتاجه من الغـلال الزراعيـة بهـدف متابعة إنتاجه بما يحتاج إليه من مواد ضرورية[2]، وهناك من كان يقوم بالتنقل بين القرى لعرض إنتاجه لبيعه ومقايضته، وعرف باسم "الحدّار"[3].

ويستخدم الفلاح الشامي في العصر المملوكي المحراث الخشبي الذي يجـره الحصان أو الثور، والمنجل لحصد المحصول، واتبع فـي زراعـة أرضـه نظـام "الحقلين"، إذ كـان يزرع جزءاً ويترك الآخر، تجنبـاً لإجهـاد الأرض، وتحـسيناً للإنتاج[4].

واقتسم الفلاح وصاحب الأرض المحصول بما يدعي " المقاسمة " التي تعتمد على نتاج الأرض وحاله الإقطاع، إذ تأتي أراضي السقي فـي الدرجـة الأولـى ، ويؤمن منها أعلى نسبة وهي النصف، أما الأراضي غير المعرضة للخطر فيؤخـذ الثلث أو الربع، والأراضي الحديثة الإصلاح يؤخـذ منهـا الخمـس أو الـسدس، والأراضي المتعرضة لهجمات العدو يؤخذ منها السبع أو الثمن، وبالمقابـل يوجـد أراضٍ مؤجرة نظير مبلغ معين يأخذه مالكها بعد كتابة عقد إيجار رسمي[5].

حرصت الدولة المملوكية على حماية الفلاح على حفظ حقوقـه، فأصـدرت المراسيم التي تمنع العربان الدخول إلى البلاد من البر قبل انتهاء الموسم وتخـزين المحصول، خوفا من مواشيهم على المحاصيل الزراعية، أو حصول أي نوع مـن التعديات والنهب على مزروعاتهم، والمراسيم التي تسقط بعض الضرائب.

---

(1) غوانمة، القرية في جنوب ، ص90-91.

(2) لابدوس، مدن إسلامية،ص46

(3) غوانمة، تاريخ الحضاري، ص108

(4) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ/ 1332م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، طبعة دار الكتب، مصر، (د.ت)، ج 8، ص242-245

(5) النويري، نهاية الأرب، ج8، ص258-259.

والقرارات الظالمة بحق الفلاحين، ففي سنة 677هـ/ 1278م أسقط الملك السعيد بن الظاهر بيبرس قرار والده الذي أقره على البساتين عند سفره إلى بلاد الروم[1]، وفي سنة 714هـ/1314م صدر مرسوم مسامحة الفلاحين بما تبقى عليهم من ضرائب السنوات السابقة[2].

وعانى فلاح بلاد الشآم كثيراً من المصاعب، منها تعرضه لظلم الأمراء الذين كانوا يستغلون الفلاح فيفرضون عليه الأموال والضرائب، فإذا لم يدفع تعرض للضرب والإهانة[3]، بالإضافة إلى عمليات القتل والنهب والسبي في حالة حركات التمرد والعصيان التي كان أمراء المماليك يقومون بها، فعندما تمرد الأمير بيغاروس وحاصر دمشق سنة 753هـ/1352م، تعرض الفلاح إلى النهب والسبي والحريق والغارات على بساتينه[4].

والضرائب التي فرضتها الدولة على الفلاح عديدة منها: ضريبة "المكس" التي كانت تسمى "مكس الغلة"[5]، وضريبة سنوية للإنفاق على عمارة جسور البلاد وتطهير الزرع والقنوات[6]، وضريبة "رسم الضيافة" التي تقدم للمقطع وتتكون من العدس والكشك[7]، والضريبة التي تؤخذ على البساتين والكروم عند النضج[8].ومما أثقل كاهل الفلاح ما عرف باسم"الطرح" وهو ما تفرضه الدولة على الناس بشراء

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص296.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص72.

(3) ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي(930هـ/1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1984، ج1ص، ص706-719؛ العسقلاني، إنباء الغمر، ج2 ، ص426.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص540-541.

(5) ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت779هـ/1377م)، تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد أمين، الهيئة المصرية، القاهرة، 1982، ج2، ص142.

(6) النويري، نهاية الأرب،ج8، ص252.

(7) النويري، نهاية الأرب، ج8، ص245.

(8) النويري، نهاية الأرب، ج8، ص271.

سلعة معينة بثمن تحددها هي[1]، ويضاف إلى ذلك عمليات المصادرة لناتج أراضي الفلاحين من الحبوب مثلما حدث في سنة 905هـ/1499م عندما قام نائب الـشام بمصادرة القمح من الفلاحين ونقله إلى قلعة دمشق[2].

وكان الفلاح يدفع الثمن عند حصول الخلافات بين العربان أنفـسهم، حيـث يقومون بقطع الطرق ونهب القرى والتعدي على الفلاحين مثلما حـدث فـي سـنة 748هـ/1347م[3].

وعانى الفلاح الشامي من الظلم الاجتماعي القاسي الناجم عن إخضاعه لنظام الإقطاع، الذي جعله أشبه ما يكون بعبد تابع لسيده الذي حرمه من حقوقه وربطـه بالأرض، وقيد حركته، وفي ذلك يقول السبكي :" ومن قبائح ديوان الجيش إلـزامهم الفلاحين في الإقطاعات بالفلاحة، والفلاح حر، لا يد لآدمي عليه، وهو أمير نفسه، وقد جرت عادة بالشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلـى القريـة قهراً، وهم من جراء ذلك لم يحوزوا إلا قليلا من المكاسب ضمن ما كـان يـسمى بنظام المقاسمة، بحيث لا يتناسب مع ما يبذله من جهده، وكل ذلك لا يحل اعتماده، والبلاد تعمر بدون ذلك، بل إنما تخرب البلاد بذلك، لأنهم يضيقون علـى النـاس، فيضيق ا عليهم "[4].

فالفلاح كان عبداً يأتمر بمشيئة أسياده الإقطـاعيين، حيـث يلـزم بفلاحـة الأرض، ولا يسمح له بالنزوح منها إلا بعد ثلاث سنوات، وإذا خرج ولم يعد، فـإن السلطات تعيده بالقوة إلى إقطاع سيده.

ولم يجد الفلاحون وسيلة للتعبير عن رفضهم للظلم الواقـع علـيهم سـوى الشكوى أمام الناس، حيث كانوا يتجمعون في المسجد ويقومون بالتكبير بعد الصلاة، وذكر مظلمتهم، ولم تنفع هذه الطريقة لرد الظلم في كل الأحيـان[5]، ولعقـم هـذه

---

[1] لابدوس، مدن ، ص103-104.

[2] ابن طولون، إعلام الورى، ص123.

[3] أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي،(ت 732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، مصر، ط1، 1907م، ج4، ص148.

[4] السبكي، معيد النعم، ص34.

[5] ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص71، 147.

الوسيلة في رفع الظلم ابتكر بعض الفلاحـين طريقة الدفع المالي لأمـير مقابـل حمايتهم[1].ولم تنته معاناة الفلاح الشامي عند ظلم المماليك، وتعديات العربان، فقـد عانى من البيئة المتمثلة بالآفات، والأوبئة[2]، وانحباس المطر، وهذه الأسباب أثرت على الفلاح الشامي وأضافت إلى وضعه السيئ سوءاً [3]، وبالتالي أدت هذه الأسباب إلى تدهور الزراعة، فأصيبت منطقة بلاد الشام بقحط وجفاف أدى إلـى ارتفـاع الأسعار في بلاد الشام وفي الرملة والقدس ونابلس والـساحل ودمـشق وحـوران وحماة[4].

7.2.1 الزُعر:

الزعر في شعر الرأس، وفي ريش الطائر: قلة ورقة وتفـرق ومنـه قيـل للأحداث زعران[5]، والزعر جمع زاعر، وهو اللص والمحتال والعيار والحرفوش والمتشرد[6].

ويعد الزعر عنصراً من عناصر المجتمع الشآمي المملوكي، وكانوا يعرفون في مصر بالحرافيش، وفي العراق بالعيارين، ووجدوا في كل حي من أحيـاء دمـشق، وذكر منهم زعر الشاغور، وزعر الميدان، وزعر الصالحية، وزعر بردى[7]. ولعل التدهور الاقتصادي الذي أصاب الدولة المملوكية هو الذي سبب ظهور هذا العنصر في المجتمع الشامي، حيث أدى إلى ازدياد عدد العاطلين عن العمل[8].

---

[1] ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص88-89.

[2] ضومط، الدولة المملوكية، ص151.

[3] العلبي، أكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (906هـ - 922هـ / 1500م- 1520م)، دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1982م، ص96-98.

[4] غوانمة، يوسف حسن درويش، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشآم ، دراسات تاريخية، مجلة فصلية تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق، محرم 1404هـ/ تشرين الاول 1983م، العددان 13,14، ص74-87.

[5] ابن منظور، لسان العرب، باب زعر.

[6] المقريزي، إغاثة الأمة :45.

[7] لابدوس، مدن إسلامية، ص259.

[8] أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج11، ص286.

استغل الزعر وقوع الفتن والمؤامرات للحصول على المال عن طريق النهب والسلب لممتلكات العناصر السكانية في المجتمع المملوكي[1]، ويضاف إلـى ذلـك قيامهم بالاستيلاء على البضائع من حوانيت التجار، وتعيين من يبيعها لحـسابهم[2]، مقابل حمايتهم من الضرائب.

وللقضاء على تعديات الزعر قامت الدولة المملوكية بمعـاقبتهم بالـشنق[3]، وتدمير أحيائهم، عند ازديـاد تعـدياتهم[4]، كمـا حـدث لزعـر الـشاغور سـنة 908هـ/1502م حيث هاجمهم المماليك وقاموا بإحراق حي الـشاغور بأكملـه، ومطاردة الزعر، لتقليل سطوة هذا العنصر وإخلالهـم بـالأمن واعتـدائهم علـى السكان[5].

وأصبح للزعر أهمية لدى المماليك في السنوات الأخيرة للدولـة المملوكيـة، وهذه الأهمية تتمثل بحرص المماليك أن يكون الزعر في جماعة السلطان، كما حدث سنة 910هـ/1504م حينها قام قاضيا الحنفية والمالكية ومتسلم النائـب بتحليـفهم على ذلك[6].

وارتبط مع عنصر الزعر عنصر أخر من عناصر المجتمع، وهـو عنـصر الحرافيش، وهم من اتخذوا سؤال الناس مهنة، فكانوا يسألون النـاس دون حاجـة، حيث يجلسون على أبواب المساجد ويطلبون المساعدة[7]، وهؤلاء استغلوا قيام الفتن، وانعدام الأمن للقيام بأعمال الـسلب، والنهـب، والـسرقة للبيـوت، والحوانيـت، والأسواق، والبساتين[8].

---

(1) ابن طولون، إعلام الورى، ص195-205.

(2) ابن طولون مفاكهة الخلان، ج1، ص212.

(3) ابن طولون، إعلام الورى، ص167-168.

(4) المصدر نفسه، ص105.

(5). المصدر نفسه، ص108، 198.

(6). المصدر نفسه، ص183.

(7). السبكي، معيد النعم، ص147.

(8) الحجي، حياة، أحوال العامة 678-784هـ/ 1279-1382م دراسة من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، دار القلم، الكويت 1994م، ص156.

8.2.1 البدو

البدو خلاف الحضر[1]، وهم عنصر من عناصر المجتمع الشامي المملـوكي، حيث انتشر في جميع أنحاء بلاد ، وكان لكل قبيلة أفخاذها وبطونها، وعلى رأس تلـك القبائل آل ربيعة بني حازم بني علي بن مفرج بن دغفل بن جراح[2]، وانقـسموا إلـى ثلاثة أفخاذ وهم: آل فضل، ونسبوا إلى فضل بن ربيعة، وكان موقعهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة[3]، وتصل منطقة نفوذهم إلى الوشم[4] والبصرة[5].

أما الفخذ الثاني فهم آل مرة ونسبوا إلى مرة بـن ربيعـة، وديـارهم مـن الجيدور[6] والجولان[7] إلى الزرقاء والظليل إلى بصرى، وتصل إلى الشرق حتى حرة كشت الواقعة قرب مكة[8]. والفخذ الثالث هم آل علي، وهم بطن من آل فضل، ونسبوا إلى علي بن حديثة بن عقبة بن فضل، وقد سكنوا مرج دابق وماتوا فيها، وتصل منطقة نفوذهم إلى الحوف والحبابنة إلى السكة والبرادع[9].

ومن قبائل جرم، وهم ببلاد غزة والداروم إلى الخليل، وقبائل ثعلبة من طيء، وهم ببلاد مصر إلى الخروبة، وقبائل زبيد، وهم فرق شـتى مـنهم فرقـة بـصرخد وحوران، وفرقة بمرج دمشق وغوطتها، وفرقة تسمى"زبيد الأحلاف" وديارهم الرحبة، وقبائل بني كلاب وديارهم أطراف حلب وبلاد الروم، وقبائـل بنـي خالـد وسـكنوا حمص[10].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، باب بدا .

(2) القلقشندي،صبح الأعشى، ج4 ، ص 203، عاشور، العصر المماليكي، ص214.

(3) الرحبة : ناحية بين المدينة و في وادي القرى. ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت 739 هـ/ 1238 م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق : علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1954 ، ج2، ص608 .

(4) الوشم : موضعه باليمامة يشمل أربع قرى . ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، ج3، ص1438 .

(5) العمري، مسالك الأبصار، ص116 .

(6) الجيدور : كورة من نواحي دمشق ، فيها قرى، وهي شمالي حوران . ياقوت، أبو عبدا ياقوت بن عبدا الحموي الرومي البغدادي (ت 626 هـ / 1228 م) معجم البلدان ، دار إحياء التراث ، بيروت ، 1979 ، ج2، ص197 .

(7) الجولان : قرية و قيل جبل من نواحي دمشق من عمل حوران. ابن عبدالحق ، مراصد الاطلاع ، ج1، ص 360.

(8) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص208.

(9) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص210.

(10) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج4، ص211-214.

ومن قبائل جذام التي سكنت الشام ، بنو مهدي، وهم أخو لخم وهو جـذام بـن عدي بن عمرو بن سبأ من العرب العاربة إما من عمرو القحطانية، وإما من عذرة من قضاعة من حمير بن سبأ من القحطانية، ومنازلهم في البلقاء إلى باير إلى الصوان إلى علم أعفر، وقبائل بني عقبة، وامتدت ديارهم من الكرك إلى الأزلام في الحجاز، وقبائل بني زهير، ومنازلهم في الشوبك، وقبائل بنو سعيد في صرخد وحوران والغور، وقبائل بني صخر الذين سكنوا الكرك ، وقبائل بني خالد وسكنوا حمص[1].

ساهم زعماء بدو الشآم في الدولة المملوكية الأولى في الدفاع عن بلاد الـشام مع المماليك في زمن الحرب، كما عملوا على استتباب الأمن في أنحاء البلاد في زمن السلم، وأنهم بسبب موقفهم المؤيد للدولة المملوكية في السلم والحرب . حظوا بتقـدير وإعجاب سلاطين المماليك، فقدموهم على غيرهم من البدو، ومنحوهم الألقاب وملكوهم الإقطاعات من المدن في بلاد الشام.

وقد ظل بدو الشام طوال عصر الدولة المملوكية، وحتى نهايته، على ولائهـم للدولة المملوكية، فبدو الشام ، لم يقوموا بثورات ضد الدولة كنظام حكم، وإنما كـانوا يثورون لأسباب واضحة وذات أهداف سياسية واقتصادية محددة، وكان هذا من أسباب استمرار حسن العلاقات بين بدو الشام وسلاطين المماليك [2].

أضفى المماليك على البدو منصب أمير العرب، وقد اهتموا بالمنصب لما له من دور في القيادة على القبيلة، وكان هذا المنصب من قبل السلطان، وجـرت العـادة أن يذهب أحد أمراء المماليك إلى أمير العرب لتقليده منصب الإمرة[3].

وظلت السلطة المملوكية تراقب تحركات البدو في ريبة وقلق، لأن بعضها رفع راية العصيان من أول يوم لحكم المماليك، لذلك يتواصى بعض السلاطين بحسم مادتهم واستئصال شأفتهم، ففي التقليد الذي صدر عن قلاوون لابنه علاء الدين بولاية العهـد ينصحه بمراقبة البدو والتـشديد علـيهم ونـزع سـلاحهم وتأديـب الخـارج منهم:"العربان (البدو) في البلاد تحسم موادهم، وتؤخذ رهـائنهم، ويحتـرز علـيهم، ويكتب إلى النواب والولاة من الأعمال بأن أحدا لا يحمل منهم سـيفا ولا رمحـاً ولا

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ4، ص213.

(2) السيد ، تاريخ عرب ، ص176.

(3) العسقلاني ، أنباء الغمر ، جـ1، ص415 .

سلاحاً، ولا يفسح لأحد منهم في ابتياع ذلك من القاهرة، ومن خالف ذلك وحملـه فـي سفر من بلد إلى بلد تستهلك تلك العدة ويؤدب"[1] وبهذه الشدة كانت وصـية قـلاوون لابنه بشأن البدو، وكأنها أوامر لا يجوز الجدل والمناقشة حولها.

وفي الرسالة للسبكي يصف فيهـا وقعـة مـن وقـائع البـدو حـدثت سـنه 765هـ/1363م، يقول فيها:" ولقد شبت بين العرب والترك نار لا للقرى بل للقراع، ولقد نهضت الدهماء واضطرب النقع المثار، واشتبه المتبوع بالأتباع، ولقد بكت البيض وزعقت السمر في يوم أسود يطيب به الموت الأحمر."

ثم تمضي الرسالة فتصف ما حل بالبدو من قتل وتذبيح حيث برزت نساء كـل منهن تبحث عن زوجها فتجده وقد أطاحت السيوف برأسه فيقول: "لقد قامت الحـرب على ساق ورقت نساء الأعراب ولكن على الحياة حين رأين الأنفس إلى الحمام تساق، وكم ذات خدر فقدت واحدها بين الرفاق فكرت تتبعه فصادفت على دمـه ومـصرعه السباع، من كل مهند لمع وكأنه البرق الخاطف ، وجرد فكأنه القضاء الجـاري فـي المواقف، وسل فكأنه الأسد الضاري في المخاوف، وكل رديني هـز فكأنـه الغـصن تناثرت ثماره، وطغى فكأنه وخز الشيطان تضرمت ناره، ولقد طاحت الغربان برؤوس العربان، وصاحت بالويل والثبور بنات طارق لطوارق الحدثان ، وراحـت بـالأرواح أقوام تعرف الحقيقة لا بحد ورسم بل بحد وسنان "[2] .

ويتضح من النص السابق الكيفية التي كان ينكل البدو بها، حيث يمثل بهم شـر تمثيل ليكون قتلاهم عبرة لأحيائهم حتى لا يشخصوا بنظرهم إلـى سـاحة الـسلطان، وكانت معاملة الدولة لهؤلاء البدو فيها كثير من عدم الاحترام، حتى المهادنات كانـت تفسر على أنها ضرب من الإذلال ، لأنها فرصة البدو للتمرد على الدولة.

وحاول المماليك إضعاف قوة البدو عن طريق نشر الخلاف بين زعمـائهم، لذلك قسموا إمرة القبائل بين أميرين أحيانا[3]، كما عملوا على عدم استمرار الأمير

---

(1) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم، (ت 807 هـ / 1405 م)، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق : قسطنطين الزريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الأمريكانية، بيروت، 1938، ج7، ص199 .

(2) السبكي، تاج الدين (ت771هـ/1369م)طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية، القاهرة، ج6، ص80.

(3) ابن قاضي شهبة، بدر الدين (ت 874 هـ / 1469 م)، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تاريخ السلطان نور الدين زنكي، تحقيق : محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1971، ج3، ص8.

في منصب الإمرة لفترات طويلة، لذلك كانوا يعينونه لفترة قصيرة ثم يقومون بعزله ويعينون آخر مكانه[1].

ووصل أمراء العرب إلى منصبهم عن طريق الأموال[2]، وتبعاً لذلك تـولى بعضهم هذا المنصب ولم يبلغ سن الرشد كما حدث في سنة833هـ/1432م حيث خلع على سليمان بن عذرا بإمرة العرب وعمره خمس عشرة سنة[3].

وترتب على أمراء العرب تقديم التقادم(الهدايا) إلى السلطان[4]، وقد كانـت قيمة تقدمة الأمير فياض بن مهنا سنة 746هـ/1345م ألف درهم؛ وتكونت مـن الخيول الأصيلة والإبل، ويضاف إلى ذلك قيامهم بتجهيز الإقامات على الطرق فـي حالة قدوم السلطان أو كبار الأمراء[5].

وكان على البدو أيضا تقديم الرجال وقت الحرب، فكانت كل قبيلـة ترسـل جماعة من الرجال لكي ينضموا إلى الجـيش المملـوكي أثنـاء قيامـه بأعمـال عسكرية[6]، وحراسة الطرق، والدروب الصحراوية[7].

وقد كان البدو كثيري الترحال، يترحلون إما أن تكون رحلـة عاديـة بـين المصايف والمشاتي طلبا للماء والكلأ[8]، أو بسبب خلافهم مع المماليك[9].

---

(1) السـخاوي، محمد بن عبـد الرحـمن بن محمد بن أبي بكر بن عثـمان (ت 902 هـ / 1496 م)، التبر المسبوغ في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د.ت، ص299 .

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص 290 .

(3) المقريزي،تقي الدين، (ت842هـ/1440م)، السلوك لمعرفة الملوك، دار الكتب،مصر،1972،ج4،ص834.

(4) العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص103 .

(5) الصيرفي، علي بن داوود، (ت 900 هـ / 1494 م)، نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان، تحقيق : حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، 1971م،ج1، ص364 .

(6) العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص475؛ أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص303،304 .

(7) المقريزي ، السلوك، ج1، ص 465 – 492 ; عاشور، العصر المماليكي، ص 215 .

(8) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ج 3، ص31 .

(9) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج2، ص397 .

أما مصادر دخل البدو، فكان أهمها الإقطاعات التي حصلوا عليها من الدولة، وكانوا يعيشون من ورائها[1]، والإنعامات التي يقدمها السلطان لأمراء العرب الذين يفدون عليه في القاهرة، وقد بلغت إنفاقات السلطان للأمير فضل سنة719هـ/1319م ألف وخمسمائة ألف درهم[2]، ويضاف إلى ذلك المبالغ المأخوذة من الحجاج كل سنة مقابل حمايتهم[3].

عاش أغنياء البدو عيشة رفاهية نتيجة الموارد الضخمة التي تأتيهم من مصادر دخلهم[4]، حتى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي اهتم بهم اهتماماً كبيراً فتحسنت أوضاعهم ، وأصبح رجالهم يلبسون الحرير الأطلس المزركش بالذهب، أما نساؤهم فأصبحن يلبسن البراقع المزركشة والشنابر المزينة بأطر ذهبية، وصارت زينتهن الأساور المرصعة بالجواهر واللؤلؤ، عدا عن استعمال المسك والطيب[5].

أنفت قبائل البدو من التنظيمات المملوكية التي تفقدها كثيراً من حريتها، فأخذت ما في النظام من مميزات وفي الوقت نفسه عمدت إلى التمرد على الدولة بسبب سوء أحوالهم الاقتصادية[6]، وقد ترتب على ثوراتهم نتائج عدة منها: انقطاع الطرق في وجه المسافرين[7]، والقوافل التجارية[8]، ويضاف إلى ذلك تعدياتهم على قوافل الحجاج[9]، وهنا لم تقف الدولة مكتوفة اليدين أمام فساد العربان، فعملت على

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص207؛ طرخان، النظم الإقطاعية، ص155 .

(2) ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المغربي، (ت 808 هـ / 1405 م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب، بيروت، 1983، ج 4 ، ص56.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 291 .

(4) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج9 ، ص168 .

(5) المقريزي، السلوك ، ج2 ، ص528 .

(6) اليوسفي، نزهة الناظر ، ص382 - 383 ; السبكي، معيد النعم، ص54-55 .

(7) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج4 ، ص142 – 147; ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص99

(8) العسقلاني، إنباء الغمر، ج2 ، ص199 .

(9) المقريزي، السلوك، ج 4 ، ص854 ; العسقلاني، إنباء الغمر، ج2 ، ص493.

الحد منها بإرسال الحملات التأديبية لمحاربتهم[1]، والإكثار من قـتلهم[2]، أو سـبي جماعات من نسائهم وأولادهم للرضوخ للدولة المملوكية[3].

9.2.1 العشير

يعد العشير عنصر من عناصر المجتمع المملوكي، وهم قبائل من البدو التي استقرت في مكان ما وعملت بالزراعة[4]، وانتشرت في جميع أنحاء بلاد ، ووجـد كل منطقة"مقدم" منهم سمي"مقدم العشير"، وكان عدد هؤلاء خمسة وثلاثين"مقدماً"[5].

ومن العشير الذين سكنوا بلاد بنو بشارة الذين سكنوا في جنوب لبنان وصفد وصيدا [6]، وبنو صبيح الذين سكنوا لبنان، وبنوا الحمرا الذين سكنوا سهل البقـاع، وبنو بحتر وبنو رحطوش وبنو الحبيش الذين سكنوا بيروت[7]، وبنو الحنش الـذين سكنوا سهل البقاع وضواحي حماة[8]، وبنو إسماعيل وبنو عبد القادر الذين سـكنوا جبل نابلس[9].

وغلب على علاقة العشير بالدولة المملوكية طابع التوتر والعداء، حيث استغل العشر فرصة ضعف الدولة في سنين 699هـ/1299م ،و803هـ/1400م عندما اجتاح الشآم كل من غازان وتيمورلنك، فعملوا أعمالاً عدوانية ضد الجند كالنهـب والقتل[10]، ووصلت خطورة العشير إلى حد حدوث الاشتباكات بينهم وبين المماليك

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1 ، ص176 ; أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج16 ، ص301 .

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص164 .

(3) المصدر نفسه، ج1 ، ص344 .

(4) أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص374 .

(5) أبو المحاسن، زبدة كشف الممالك، ص105 ; بولياك، الإقطاعية، ص45 .

(6) السخاوي، التبر المسبوك، ص268 ; بولياك، الإقطاعية، ص46 .

(7) بولياك، الإقطاعية، ص45 -48 .

(8) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج1، ص303 ; بولياك، الإقطاعية، ص46 .

(9) العسقلاني، إنباء الغمر، ج2 ، ص462 ; بولياك، الإقطاعية، ص49.

(10) العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص237.

وراح ضحيتها بعض نواب السلطة، كما حدث في سنة 795هـ/1392م عندما قتل العشير يونس القشتمري[1].

وقد توسطت هذه العلاقات العدائية، علاقات مشوبة بالود والعطف، فقد كـان مقدمو العشير يقومون بزيارة نواب السلطة المملوكيـة ويتبـادلون معهـم الهـدايا والهبات، ففي سنة 917هـ/1511م قام الأمير محمد بن ساعد ومعه الأمير ناصر الدين محمد بن الحنش بزيارة نائب الشام ، حيث قدما له كل منهما الهدايا والخيول، وقام هو بإكرامهما[2].

وعملت السلطة المملوكية على تقوية علاقتها بالعشير عن طريق توليتهم في المناصب الهامة مثل نيابة بيروت، بعلبك، حمص، وصيدا التي تولاها آل الحنش[3]، بالإضافة إلى ذلك عملت على إعطائهم بعض الرتب العسكرية[4].

وتعرض بعض مقدمي العشير إلى المصادرات مـن قبـل نـواب الـسلطة المملوكية، ويضاف إلى ذلك تعرضهم لجمع مبالغ طائلة من المال في حالة احتيـاج الدولة إلى التجاريد للقتال[5]، ولم تقتصر الدولة المملوكية على المصادرات وجمع المال بل تعدت ذلك إلى تجنيد العشير في الحملات العسكرية الخارجة للقتال علـى أطراف الدولة[6].

وقد كان العشير يقومون أحيانا بإثارة الفتن والقلاقل في أرجاء الدولة فتكون حصيلة ذلك نهب القرى والمدن وتخريبهما[7].

وكانوا يستغلون فتـرات الفوضـى والحـروب كمـا حـدث فـي سـنتي 791هـ/1388م و792هـ/1389م أثناء حصار الظاهر برقوق لمنطـاش فـي

---

(1) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج1، ص 367.

(2) ابن طولون، إعلام الورى، ص213-215.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص106-107.

(4) طرخان، النظم الإقطاعية، ص161-163.

(5) ابن طولون، إعلام الورى، ص116-117.

(6) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج3، ص265 .

(7) ابن طولون، إعلام الورى، ص121.

دمشق حيث ثار آل الحنش ونهبوا بعلبك وبعض القرى المجاورة[1]، وكما حدث في سنة 803هـ/1400م حيث ثار العشير وخربوا الرملة ونهبوا أموالهـا وأفـسدوا فيها[2].

وقامت الفتن بين العشير أنفسهم، وأخذت طابع القبيلة، ونذكر من ذلـك مـا حدث في السـنوات 709هـ/1309م، 745هـ/1344م، 750هـ/1349م، 841هـ/1437م، 885هـ/1480م، 891هـ/1486م، 893هـ/1487م، 910هـ/1504م، ونتج عن هذه الفتن وقوع الكثير من القتلى، وخراب القرى، في المزروعات[3]، وفي مقابل ذلك قامت الدولة بإرسال الحملات العسكرية للحد مـن تمادي العشير والتخلص من فتنهم[4].

10.2.1 المرأة

حازت المرأة على قسط من الاحترام والاهتمام، ويتأتى هذا الاهتمام بعنايـة المماليك باختيار زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللائـي جلـبهن التجـار[5]، ويضاف إلى ذلك الألقاب التي أطلقت عليهن[6]، من هذه الألقاب الجهة التي تؤكـد أنها جليلة في مقدارها ومكانتها[7]، والمحجبة التي تؤكد أنها محجوبة عن الناس ولا يراها أحد ولا يلمسها[8].

ولم تقتصر الألقاب على المرأة المملوكية بل تعدتها إلـى عامـة العناصـر السكانية، وخير دليل على ذلك تلك الألقاب التي أطلقها الناس على نسائهم وبنـاتهم

---

(1) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، ج3، ص300-303.

(2) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج2، ص94.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص57.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية ، ج14، ص278.

(5) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج9، ص92; عاشور، العصر المماليكي، ص122 .

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص171.

(7) الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية، دار النهضة العربية ، مصر ، ط1، 1978م، ص 248.

(8) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص78 .

مثل: ست الخلق، وست الحكام، وست الناس، وذلك من باب الاهتمام بهن والثنـاء عليهن[1].

كانت المرأة تتمتع في المجتمع المملوكي بقسط مـن الحريـة مكنهـا مـن المشاركة في الحياة العامة سواء بالخروج إلى الأسواق، أو التردد إلى الحمامات، أو الاشتغال بالعلم [2].

وتجدر الإشارة إلى أن المرأة قد وصلت إلى درجة عالية من التقدير عنـدما شاركت في الحياة السياسية، ومن أكبر المشاركات تولي شجرة الدر حكم المسلمين، إذ بعد قتل شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية، لم يشأ المماليك أن يخرج الحكم عـن البيت الأيوبي، فولوا شجرة الدر وتوجوها ملكة عليهم[3].

وقد تحكمت بعض أمهات السلاطين بأمور البلاد وتوجيـه سياسـة الدولـة، خاصة إذا كان السلطان صبياً طائشاً، فهذه أم المنصور نور الدين على بن المـضر أيبك، تتحكم في البلاد؛ إذ كان المنصور صبياً صغيراً لا يعرف تدبير المملكة[4].

ويضاف إلى المشاركة السياسية المشاركة الثقافية، ولا شك أن الاهتمام بتعليم المرأة قد ساعد على بروز دورها في الحياتين العلمية والدينيـة بـشكل واضـح، فوجدت معلمات للبنات لتعليمهن القراءة والكتابة[5].

كما حازت المرأة الجارية على الاهتمام، ودليلـه شـغف جميـع العناصـر السكانية لاقتناء الجواري الحسان ودفع الأموال الطائلة في شرائهن[6]، وقد توقفـت قيمة الجارية ومنزلتها عند صاحبها على ما فيها من مميـزات كجمـال الـصوت،

---

(1) ابن الحاج، أبو عبدا محمد بن محمد العبدري،(ت 839 هـ / 1435 م)، المدخل، المدخل الشرعي الشريف على المذاهب، المطبعة المصرية، القاهرة، ط1، 1927م، ج1، ص238.

(2) الحسين، قصي، الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني،المكتبة المصرية، القاهرة، ط1، 1987، ص68.

(3) محمد عدوان، العسكرية الإسلامية من العصر المملوكي، عالم الكتب، الرياض،ط1، 1985م، ص21.

(4) المقريزي، السلوك، ج1، ص405.

(5) ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص163.

(6) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج9، ص210.

وحسن الطلعة، أو غير ذلك من صفات[1]، وأدى هذا الشغف باقتناء الجواري إلى انقطاع الأسياد إليهن، وتبذيره الأموال لإرضائهن انطلاقا من مكانتهن عنده [2].

وقد اختلفت درجة ترف المرأة حسب درجة غنى المسؤول عنها، فقد تمتعت زوجات السلاطين بإسراف لافت للنظر في اقتناء الأواني والأثاث، فأسرة إحداهن كانت من الفضة الخالصة المرصعة بالذهب، وأربت ثروتها على ستمائة ألف دينار[3]، ووصل ثمن إزار أحداهن أكثر من ألف درهم، وثمن زوج من الأحذية من مئة إلى خمسمائة درهم[4]. وخصص المماليك لجواريهم أماكن سكن خاصة سميت بالقاعات، وهي بفخامتها لا تقل عن بيوت زوجاتهم[5].

وكان الحجاب مفروضا على المرأة الحرة، وأما الجارية فتجول في الأسواق سافرة، لكن يفرض عليها قيود في اللباس والسلوك[6].

وكان للمرأة دور كبير في الحياة الريفية، فقد كانت تنهض بجهد لا يقل جهداً ومشقة عن نصيب زوجها، فعليها يقع عبء القيام بأعمال المنزل، ومساعدة زوجها في أعمال الزراعة، وتربية الأولاد، ونسج صوف الغنم والإبل لعمل الأكياس والعباءات من أجل بيعها لأهل المدينة، والإشراف على طحن القمح، وعجن العجين، وجلب الماء اللازم إلى البيت[7]، وقد تميزت المرأة الريفية بالاحتشام والسكينة، وبأنها ربة بيت ممتازة، وسبب ذلك قيامها بإدارة حسنة لبيتها، وتوزيع المهام على

---

(1) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج5 ، ص92.

(2) المقريزي، السلوك، ج2، ص598.

(3) أبو المحاسن، زبدة كشف الممالك، ص121 ؛ ضومط، الدولة المملوكية، ص91.

(4) ماير، ل.أ، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة: عبدالرحمن فهمي محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1972م ، ص132.

(5) المقريزي، الخطط، ج3، ص 91 ؛ ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص58.

(6) الحسين، الأدب العربي من العصرين المملوكي والعثماني، ص 68.

(7) رمضان، أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، مصر، ط1، 1977م، ص210.

الأفراد[1]، أما أوقات الفراغ فيبدو أنها كانت قليلة وإن وجدت فتقضيها مع جارتها، وفي الاحتفالات العائلية[2].

(1) أبو راشد، عبدالصمد، طيرة الكرمل طيرة حيفا الأرض، د.م، إربد، 1993م، ص184.

(2) النابلسي، الشيخ عبد الغني النابلسي القادري، (ت 1143 هـ / 1730 م)، رحلتي إلى القدس المسماة بالحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، مطبعة جريدة الإخلاص، مصر، 1902م، ص49.

الفصل الثاني

الوظائف والحرف في المجتمع الشآمي

إن الهيكل الإداري في الدولة المملوكية قد بلغ درجة عالية من التعقيد والدقة وتعدد الأجهزة[1]، إذ كانت الدولة موزعة في نيابات عدة بين مصر والشآم[2].وتكون الهيكل الإداري للدولة المملوكية من عدد من الموظفين الذين ساعدوا السلطان في شوؤن الحكم والإدارة[3]، ويمكن دراسة تلك الوظائف وفق التقسيمات التالية:

1.2 وظائف أرباب السيوف

هي الوظائف التي شغلها العسكريون، وغالبيتهم من الأمراء، وسموا باسم أرباب السيوف لتربيتهم تربية عسكرية على القتال وفنون الحرب والجهاد[4]، وقد تمثلت بعدد من الوظائف أهمها:

1.1.2 النيابة:

تعد النيابة كما يقول التقليد "الرتبة العلية صوره ومعنى،الملية إذا طاولت الكواكب بأن لا يعلم أسمى منها وأسنى[5]".

ويمضى هذا التقليد الذي كتب به للأمير"سيف الدين ايتمش"من إنشاء شهاب الدين محمود الحلبي فيظهره نائبا كفئا لهذا المنصب، حافظا له، فقد "كان فلان ممن ينهض مثله بحفظ مثلها، ويعلم أن أمانتها التي لا تحملها الجبال قد أودعت منه إلى

---

(1) عاشور، مصر والشآم في عهد الايوبيين والماليك، ص299-303.

(2) العمري، ابن فضل ا (ت749 هـ،1349م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق:سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة،الكرك،ط1، 1992، ص247-263.

(3) الزيدي، العصر المملوكي موسوعة التاريخ الإسلامي، ص215.

(4) قنديل، التعريف، ص23.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12،ص121.

كفئها، ووضعت كفايتها في أهلها، فهو سيفنا الذي يحوطها ذبابه، وولّينا الذي طمح بصره إلى أفق حلّه أحرقه شهابه، ونشو أيامنا التي تنّشئ كل ليث يقنص الظّفر، وينبو بالسيوف نابه، وغذيّ دولتنا التي ما اعتمدنا فيه على أمر إلا كرم به نهوضه، وحسن فيه منابه"[1].

ويتابع التقليد بتوصية النائب ليقوم بأمور نيابته، وليجتهد في مصالحها وليتفقد عساكر النيابة، وليحثهم على الخدمة، ورعايتهم، ولينفذ الأحكام الشرعية، وليعمر النيابة، وليرفع الظلم، وليقم العدل[2]:"وليجتهد في مصالحها اجتهاداً يوالي له من شكرنا المنح، ويأتي فيه من مواضينا بالغرض المقترح، ويزيدها إلى حصانتها حصانة وقوة، ويزينها بسياسته التي تغدو قلوب أهل العناد بمخافتها مغزوّة، ولينظر في مصالح رجالها فيكون لحمايتهم مقدما، ولمقدميهم مكرماً، ولأعذارهم مزيحاً، ولخواطرهم بتسيير مقرراتهم صريحاً، وليكن لمنار الشرع الشريف معظماً، ولأحكامه في كل عقد محكماً، ولما قرب وبعد من بلاد نيابته عامراً، ولأكف الجور عن الرعية كافاً: فلا يبرح عن الظلم ناهياً وبالعدل آمراً، وملاك الوصايا تقوى ا فليجعلها خلية نفسه ونجي أنسه"[3].

فالنيابة تعد الوظيفة الأولى في النيابة أو المملكة، وترتبط بها كافة الوظائف والدواوين حيث يقوم النائب في أكثر الأمـور المتـعلقة بنيابته[4]، فالنائب سلطان مختصر "يعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير مما يعلم عليه السلطان"[5]. "ويكتب عنه التواقيع الكريمة والمربعات بتعيين الإقطاعات"[6].

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص12-122.

[2] السبكي، معيد النعم، ص21؛القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص16،ج12، ص222؛غوانمة،نيابة بيت المقدس،31

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص222.

[4] العمري، التعريف، ص90-95؛السبكي،معيد النعم ص21؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص4-16.

[5] القلقشندي صبح الأعشى، ج4، ص16-17.

[6] العمري، التعريف، ص94؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص184؛ الظـاهري، النجـوم الزاهرة، ج9، ص145-147

وقسمت بلاد الشآم إلى عدة نيابات هي:نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة صفد، ونيابة الكرك، ونيابة غزة، ونيابة بيت المقدس[1]، وكان الذين يعينون في هذه النيابات أو الممالك يعرفون بنواب السلطنة[2]. وقد تولى وظيفة النيابة كبار مقدمي الألوف كما في دمشق وحلب وطرابلس وحماة والكرك، وأعلى هؤلاء درجة هو نائب دمشق الذي أطلق علية "نائب الشآم"[3]، وكان مقره في دمشق أو حلب، ويشرف على جميع النيابات بما فيها الموظفين والأموال، وهو مثل السلطان في مصر له وزير، وحاجب، وناظر للمال[4].

وقد جرت العادة أن يتولى النائب نيابته بمرسوم من السلطان من القاهرة[5]، أما النيابات والولايات الصغيرة فتولية النائب أو الوالي منها فيكون من النواب كل في ولايته، وأحياناً من السلطان نفسه إذا اقتضت الحاجة ذلك[6]، وكان النائب يتقاضى جامكيته من إقطاع النيابة المخصص لهذا المنصب وإذا لم يف بحاجته يزاد من الخاص السلطاني على إقطاع النيابة[7]، والطبلخاناة كانت تدق على باب بيت النائب في كل ليلة كما يحدث في الديار المصرية.

2.1.2 نيابة القلعة:

ويطلق مصطلح نائب القلعة على الذي يشرف على القلعة،وكان في مرتبة أقل من مرتبة النيابة وكان إذا تولى منصبه حلف يمين الطاعة للسلطان والدفاع عن قلعته.

---

[1] القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص180؛ عاشور، سعيد، الأيوبيين والمماليك في مصر والشآم، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2، 1976، ص365.

[2] البقلي، التعريف، ص344

[3] العمري، التعريف، ص232-234، الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص132-133، عاشور، والأيوبيون والمماليك، ص365.

[4] البقلي، التعريف، ص344.

[5] العمري، التعريف، ص90-95؛ السبكي، معيد النعم، ص21 القلقشندي، صبح الأعشى،ج4 ص184.

[6] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4 ص201-202.

[7] الظاهري، النجوم الزاهرة،ج9، ص145-147.

وهي نيابة منفردة عن النيابة، وليس للنائب عليه حديث، وولايتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف، يكتب من ديوان الإنشاء في القاهرة [1]، مثلما يقول التوقيع: "رسم أن يستقر المجلس السامي"[2]، وتعد هذه النيابة من الرتب الشريفة التي تشرف صاحبها مثلما يقول التوقيع: "يعلو بها شرف اسمه ومسماه، ويبدو للاختيار والاختبار فضل التقدم الذي إذا بدا بها كفاه"وتوجب"شكر ما رزق من فضل مكانه ومكانته"[3].

وتراوحت رتب نواب القلاع في النيابات الشآمية ما بين مقدم ألف وأمير طبلخاناه[4]، وكان يلي قلعة دمشق في بداية الدولة المملوكية مقدم ألف ثم أصبح أمير طبلخاناه[5]أما قلعة حلب فنائبها كان أمير طبلخاناه، ويتولى منصبه بمرسوم سلطاني من القاهرة[6]، وكذلك نائب قلعة القدس الذي يتولى نيابته بمرسوم سلطاني ومقره في القلعة[7]، وكذلك نائب قلعة الكرك الذي يتولى منصبه بمرسوم سلطاني من القاهرة، ويتم اختياره عادة من مقدمي الألوف أو أمراء الطبلخاناه، ويقيم بدار السعادة بالقلعة[8]، وأخيراً نائب قلعة حمص وهو من المماليك السلطانية ويعين بمرسوم سلطاني أيضاً[9].

وكان نائب القلعة يقوم بصيانة القلعة وحفظها،وعمارة ما وهن من عمارتها، ويخزن أنواع الأسلحة، ويضاف إلى ذلك إشرافه على الأجناد المقيمين في القلعة الذين يحرسون المدينة، ويقومون بمهمة الدفاع عنها[10]، مثلما يقول التوقيع: " ليواظب على حفظ القلعة التي فتح بها عليه فإنها من أعظم فتوح الإسلام،وليمد عليها من كفايته سوراً حول سورها،وليتفقد رجالها وعددها تفقد الشهب في

---

(1) القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص184؛ابن الشحنة، الدرالمنتخب، ص17.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص325.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص326.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص184؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص17.

(5) القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص184-185.

(6) القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص217.

(7) القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص199؛ غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص32.

(8) القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص241.

(9) القلقشندي،صبح الأعشى،ج4، ص202.

(10) العمري،التعريف، ص188؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص185.

ديجورها،وليرد عنها بعزمه الردادي عيون الأعادي الزرق حتى لا يراع في أرض الحرم ولا حمامات طيورها"[1].

ويحاف نائب القلعة على ذلك، وعلى أن لا يخرج شيئاً من حواصلها وذخائرها إلا في وقت الحاجة، وأن لا يفتح أبوابها إلا في الأوقات الجاري بها عادة فتح أبواب الحصون، وأخيراً لا يسلم مفتاحها لأحد إلا ممن يأخذ مكانه، أو لمن يأمر السلطان بتسليمها له[2]، فيقول النائب في عينه عند تسليم وظيفته:"وإنني أجمع رجال هذه القلعة على طاعة مولانا السلطان فلان وخدمته في حفظ هذه القلعة وحمايتها وتحصينها، والذب عنها، والجهاد دونها، والمدافعة عنها بكل طريق، وإنني أحفظ حواصلها وذخائرها وسلاح خاناتها على اختلاف ما فيها من الأقوات والأسلحة. وإنني لا أخرج شيئاً منها إلا في أوقات الحاجة والضرورة الداعية المتعين فيها تفريق الأقوات والسلاح، على قدر ما تدعو الحاجة إليه، وإنني أكون في ذلك كواحد من رجال هذه القلعة، وكل واحد ممن يتبعني كواحد ممن يتبع أتباع رجال هذه القلعة، لا أتخصص ولا أمكن من التخصيص، وإنني وا وا وا لا أفتح أبواب هذه القلعة إلا في الأوقات الجاري بها عادة فتح أبواب الحصون، وأغلقها في الوقت الجاري به العادة ولا أفتحها إلا بشمس ولا أغلقها إلا بشمس، وإنني أطالب الحراس والدراجة وأرباب النوب في هذه القلعة بما جرت به العوائد اللازمة لكل منهم مما في ذلك جميعه مصلحة مولانا السلطان فلان، وإنني لا أسلم هذه القلعة إلا لمولانا السلطان فلان، أو بمرسومه الشريف وإمارته الصحيحة وأوامره الصريحة، وإنني لا استخدم في هذه القلعة إلا من فيه نفعها وأهلية الخدمة، لا أعمل في ذلك بغرض نفسي، وإنني أبذل في ذلك كله الجهد، وأشمر عن ساعد الجد"[3].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى،ج12، ص326.

(2) العمري، التعريف، ص188؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص185.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى،ج13، ص308-309.

ولهذا النائب أجناد بحرية مقيمون في القلعة لخدمته، ولا يحضر أحد منهم إلى دار النيابة في المدينة، وكان بالقلعة طبل مرتب من قبل النائب يدق ليلاً لاستعلام الوقت.[1]

يمكن القول أن نيابة القلعة لفظ يطلق على وظيفة من وظائف الدولة المملوكية، وصاحبها ينوب عن السلطان في تصريف شؤون قلعته، والدفاع عنها، وتحصينها، وكانت ولايتها من الأبواب السلطانية.

3.1.2 الحجابة

لفظ يطلق على وظيفة من وظائف الدولة المملوكية، ويسمى من يقوم بها الحاجب، وعمله أن ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه، وتارة بمراقبة النائب إذا وجد، وعليه أن يحجب السلطان عن الرعية فلا يدخل عليه إلا من يريد السلطان رؤيته، وكان في أيام الناصر محمد بن قلاوون ثلاثة حجاب، أحدهم حاجب الحجاب ورتبته مقدم ألف[2]، والحاجب على وزن فاعل، من الفعل الثلاثي حجب[3]، وقال صاحب اللسان: الحاجب البواب، صفة غالبة، وجمعه حجبة وحجاب وخطته الحجابة، وحجبه: أي منعه من الدخول[4].

هي إحدى وظائف أرباب السيوف وكان يتولاها أمير، وموضوعها حفظ باب السلطان أو النائب، والسماح للداخلين عليه، وعرض الجند، والقيام مقام النائب في كثير من الأمور[5]، وهو نائب الغيبة عند خروج النائب، وإذا صدر مرسوم سلطاني "بالقبض على النائب كان هو الذي يقبض عليه، وينفذ فيه ما يؤمر به من سجن أوغيره، ويقوم بأمر البلد إلى أن يقام نائب آخر"، وكانت تولية الحجاب من الأبواب السلطانية الشريفة، دون كتابة مرسوم أو تقليد بالحجوبية، وقد وجد في

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص185؛ غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص33.

(2) البقلي، التعريف، ص102.

(3) الشذر، طيبة صالح، ألفاظ الحضارة العباسيه في مؤلفات الجاحظ، دار قباء، الكويت، 1991، ص112.

(4) ابن المنظور، لسان العرب، مادة حجب.

(5) العمري، التعريف، ص188؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص19؛ السيوطي،حسن المحاضرة، ج2، ص134؛ غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص33.

بعض الأحيان ثلاثة حجاب في بعض النيابات كنيابة دمشق وحلب، أحدهم مقدم ألف والآخران طبلخاناه، وتولية الحاجبين الأول والثاني من الأبواب السلطانية، أما الثالث فولايته من النائب، وأحياناً كانوا أربعة حجاب، ثم صاروا في الأيام الظاهرية خمسة أوستة.[1]

أما الحجاب في طرابلس فعددهم ثلاثة،أعلاهم أمير طبلخاناه، والآخران أميرا عشرة[2]، ونيابة حماة فيها حاجبان، الأول: أمير طبلخاناه والثاني: أميرعشرة،[3] أما نيابة الكرك ففيها حاجب واحد.[4]

4.1.2 ولاية المدينة

يراد بالولاية الإمارة على البلاد، فيولي السلطان من يقوم مقامه في المدنية، ويسمى الذى يقوم مقام الخليفة الوالي[5]، ويشرف على المدينة[6]، تعد ولاية المدينة كما يقول التوقيع:"من عليّ المراتب"[7]. ويمضي هذا التوقيع بإظهار والي المدينة بصورة حسنة فقد:"تعين أن يختار لولايتها من تعين ولاؤه، وتمكن من الرتب علاؤه،وتبين في مصالح الولايات احتفاله واحتفاؤه، وشهر وفاؤه بالخدمة فلا شرف بسعي الإ له شينه وراؤه وفاؤه، من شهدت السواحل الشآمية في مباشرته أنه أجرى منها المال بحراً، وأفاض الوصف دراً، وشهدت الزكاة أنه قد أفلح من زكاها خبراً وخُبراً"[8].

ويتابع التوقيع عن صورة هذا الوالي: "بأنه الأوحد الذي جمع الأوصاف المتقدمة، أسمع من المحامد نتيجة لها من كلا قوله وفعله مقدمه، وأطلع من آفاق

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص185.

[2] المصدر نفسه ج4، ص233.

[3] المصدر نفسه ج4، ص238.

[4] المصدر نفسه، ج4، ص240.

[5] الشذر، ألفاظ الحضارة العباسيه، ص137.

[6] البقلي، التعريف، ص358.

[7] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص322.

[8]) المصدر نفسه، ج12، ص323.

الوظائف كنجوم الجوزاء الثلاثة رأيه وسيفه وقلمه، وأطلع على محاسن التدبير مكان في رعايا بلاده ممن تواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، وأنه الكافي إذا ولي ثمّر، وإذا صال على المفسدين دمر"[1]

ومن اختصاص والي المدينة مباشرة "الولاية المباركة بعزم يوضح بشرها، ينجح أمرها، ويقيم في خطبة علاه عذرها، وحزم يثمر مالها وغلالها، وينقع غلتها ويضع أغلالها، وبأس يدع المفسد من سيفه أو قيده في طوق أو محل، ويذر السارق والمارق بلا كف ويسعى بلا رجل، مشيداً لنواحيها بالترهيب والترغيب على أوثق المباني، مصلحاً بين أهل الأهواء حتى لا يضر قول القائل"رفيقك قيسي وأنت يماني"متفقداً من الأحوال كل الأموال كل جليل وحقير، ناهضاً في تلقي المهمات على قدم التقدم بالعزم الأثير جاعلاً من لدى محجة عمله لصلاح العشيرة نعم العشير، عاملاً بتقوى ا تعالى في كل أمر، وإليها الحديث يشير"[2]

يبدو من التوقيع السابق صفات الوالي منها الولاء، والتدبير، والحكمة، والصبر، كما يشير التوقيع إلى مهام الوالي كحفظ الأمن، ومطاردة اللصوص والمفسدين، وتثمير الأموال، والغلال، وإصلاح أهل الأهواء، وتفقد أحوال الناس.

وكان يساعد الوالي في مهامه عدد من الرجال والحراس، وعمله يجمع بين عمل المحتسب وعمل العسس"الشرطة"[3]وكانت رتبته إما أميرعشرة، وإما جندياً، وإما مقدم حلقة، وولاية هذه الوظيفة بتوقيع كريم عن النائب [4].

وهذا تقليد يتضمن تعيين والٍ على ولاية جنين ومرج ابن عامر في فلسطين، وهو:"أما بعد، حمدا على أن أطلع بدر الأولياء بعد سراره، وأقال من اصطفاه واجتباه من عثار زلته وزلة عثاره، وأنفذ من علم منه في الطاعة حسن اختياره واختباره وابتدائه وابتداره، والصلاة على سيدنا محمد الذي هدى ا الأمة بأنواره

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص323.

(2) المصدر نفسه، ج12، ص322-324.

(3) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص35.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص219؛ دهمان، ولاة دمشق، ص27.

وبآثاره، وعلى آله وصحبه الذين لم يعدلوا عن طريقه ولا خرجوا عن إيثاره، صلاة يتساوى فيها إعلان الإخلاص بإسراره.

وأنه لما كان مجلس الأمير بدر الدين ممن له الأصالة الزكية والنفس الأبية والنسبة في الخدمة إلى الدولة الصالحية والفضلية، التي شرف بها سيفه وقلمة، ورفع بها علمه وعمله والمعرفة التي سارت فصارت علما، ووصفت من أنواع المحامد مكلما، ورأينا أن يفوض إليه من الولايات ما تعظم بتوليته إياها، وما إذا فخر وال بتولية فخرت هذه بمن تولاها، فلذلك خرج الأمر أن تفوض إليه هذه الولاية، فليتلق ذلك عالماً أن له من إحسان هذه الدولة ما يرفعه إلى ما هو منها أعلى وأسنى، وإن لفظ هذه الولايات دون قدرة في المعنى، وإنما هذا التفويض على ما راج. وهذه الولايات لا يداوي خطرها في الحالة الراهنة إلا من عرف عنه حسن الملاطفة والعلاج، ولا بد دون القطرة من وابل مدرار، ومن القطرة والقطرة تجتمع أنهر وتجري بحار، فليعمل بتقوى ا في سره وجهره نهيه وأمره وفصله وحكمه وانتقامه وقلمه. وليعمر هذه البلاد التي اشتقتها الأهواء وأخلتها الأدواء، فقد آن صلاحها ولاح فلاحها، ولا سيما وقد رسمها وسيمها، ووليها وليها فاهتزت وربت واخضلت واخضرت وأعشبت، وليجلب إليها أهلها من كل قطر ومكان، ويمدها بكل قوة وإمكان، حتى يصبح ربعها بعد المحول مربعاً ومرجها للعيون مرتعاً، وموردها للصادر والوارد مشرعاً، وليبعد منها أهل الفساد والعبث، وليحفظ غيلها حفظ من شد شدة الليث، وليكن عند حسن الظن في الأمور كلها، وهذه الأغوار بها أقصاب هي مدد الممالك والملوك، وإذاعددت نفوذ الثغور كانت دينارها المصكوك، وليصرف إليها عناية تثميرها وتوفيرها وتضاعفها وتكثيرها، ويزجي ارتفاعها ويعمر بقاعها ويقرر الخيرات أوضاعها، وعليه التمسك بالشريعة المحمدية في القول والفعل والعقد والحل. والوصايا كثيرة لكن لغيره لأنه بها أدرى، لا زالت طاعة هذه الدولة الشريفة له ذخرا"[1].

---

[1] حمادة، محمد، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي 656هـ-922هـ، 1258م-1516م دراسة ونصوص، مؤسسه الرساله، بيروت، ط1، 1980، ص241-242

يبين السلطان المنصور قلاوون في التقليد السابق واجبات الوالي تجاه الرعايا وتجاه السلطان، وتجاه الولاية ذاتها، وأمره الوالي بالتمسك بالشريعة الإسلامية.

5.1.2 نقابة الجيش

هي وظيفة من وظائف أرباب السيوف، وكان يتولاها أمير طبلخاناه، أو أمير عشرة، ودونها اثنان من جند الحلقة، "ويكتب لكل منهم توقيع عن النائب بقدر رتبته"[2]ولهذه الوظيفة ثلاثة أنفار، أعلاهم يعبر عنه بنقيب النقباء.[3] ويتكافل نقيب الجيش بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ونحوهم، ومعهم يمشي، وهو كأحد الحجاب الصغار، وفيه تطلب الحراسة في المواكب والسفر [4].

ويقول التوقيع الذي كتب به بنقابة العساكر بطرابلس عن صفات النقيب الذي:

"اعتمد على همته التي هي في المضاء كأسنته وصوارمه، ورعيت عهود ولائه التي لا تنكر ووضعت مساعيه التي استحق أن يحمد بها ويشكر من إذا عول عليه في المهمات كفاها، وإذا استطّبّت المعضلات به شفاها، وسارت أنباء مهابته غوراً ونجداً واتصف بحسن التدبير الذي علية من الإقبال أكمل إجداً.

ولما كان فلان هو الذي تناقلت تباشير أخباره الركبان، وأثنى على شهامته السيف والسنان، وشرفت بمحاسنه الأقلام وارتفع ذكره بالشجاعة على رؤوس الأعلام.

ولذلك رسم لا زال للدين الحنيفي ناصرا، وللأعداء قامعا قاهرا، وللحق مؤيدا باطنا وظاهرا أن يستقر الجناب العالي المشار إليه أمير نقباء العساكر المنصورة الطرابلسية، عوضا عمن كان بها، على عادته وقاعدته، لأنه الخبر الذي عقدت على خبرته الخناصر، وورث الشهامة كابرا عن كابر، وأضحى بتدبيره واضح الغرر

---

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص186.

[3] المصدر نفسه، ج4، ص21-22؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص36.

[4] البقلي، التعريف، ص352؛ والنقيب في اللغة: العريف الذي هو ضمين القوم، البقلي، التعريف، ص352.

شاهداً له العين والبصر، إن جال بين صفوف العساكر كان أسداً، وإن رتب جيوشها أحصاها حلية وعدداً."[1]

ويتابع التوقيع ذكر مهام نقيب الجيش الذي يباشر :" هذه الوظيفة محرراً أحوال العساكر المنصورة، مقرراً لهم في منازلهم على أكمل عادة وأجمل صورة، بمناصحة ضمخ بمسكها، ومخالصة قام مقام واسطة جوهر سلكها، وملازمة خدمة تآزرت بها أعطافه، وصفاء طوية شرفت بها أوصافه، ومحبة عدل جمع فيها بين قوله وفعله إخلاص يحسن بالمرء أن يكون ملتحفاً بظله : لكي يتم ا النعم عليه كما أتمها على أبيه من قبله، وليقصد رضا ا تعالى في هذا الأمر، لا رضا زيد ولا عمرو، وا تعالى يتولاه فيما تولاه، والاعتماد في ذلك على الخط الكريم أعلاه، حجة بمقتضاه إن شاء ا تعالى "[2].

يشير التوقيع السابق إلى صفات نقيب الجيش، ومنها : الهمة العالية، والولاء للدولة، وحسن التدبير، والشهامة، والشجاعة، كما يشير هذا التوقيع إلى مهام نقيب الجيش فهو الذي يهتم بأحوال العساكر، وهو المسؤول عنهم أمام النائب أو الحاجب، إضافة إلى أنه كان يلتزم بحراسة النائب في ركوبه وسفره أو خروجه للصيد.

6.1.2 المهمندارية

وظيفة من وظائف أرباب السيوف، وموضوعها تلقي الرسل والعربان الواردين

من الخارج إلى النائب، وإنزالهم دار الضيافة، والتحدث في القيام بأمورهم[1]، كما يقول التوقيع للمهمندار[2]:" ليهيئ لهم المضيف، وليحصل لهم التالد منه والطريف،

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص454- 455

[2] المصدر نفسه.

[1] السبكي، معيد النعم، ص31؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص22، 187.

[2] المهمندار، مركب من لفظين فارسيين، أحدهما مهمن، ومعناه الضيف، والثاني دار، ومعناها ممسك، والمعني أجمالاً: القائم على أمره. البقلي، التعريف، ص334.

وليتلقهم بوجه الإقبال، وليبدأهم بالخير، ليحسن المآل، وليجعل التقوى إمامه في كل أمر ذي بال، وليتصف بالإنصاف فهو أحمد الأوصاف في جميع الأحوال."[3]

وكان في النيابة مهمنداران اثنان : أحدهما مقدم ألف أو طبلخاناه أو أمير عشرة والآخر جندي حلقة، وكان المهمندار يتولى وظيفته بتوقيع كريم من النائب[4]. وكان في نيابتي دمشق وحلب في بداية عصر الدولة المملوكية مهمندار واحد رتبته أمير مئة، ثم أصبح فيها اثنان أمير عشرة وجندي، ويكتب لكل منهما توقيع عن النائب[5]، أما نيابة حماة ففيها اثنان برتبة جندي[6].

7.1.2 الخزندارية

وتعد من وظائف أرباب السيوف التي موضوعها الحديث عن الخلع والتشاريف السلطانية بالقلعة، وكان يتولاها أربعة طواشية، بعضهم أعلى من بعض، أما أعلاهم فكان برتبة أمير طبلخاناة، أوأمير عشرين، ويكتب له توقيع كريم عن نائب السلطة[7].

والخزندارية: اسم مركب من كلمتين عربية وهي خزن أي ما يخزن فيه، وفارسية وهي دار، فيكون معناها ممسك الخزانة، وهو المشرف على خزائن السلطان من نقد وأمتعة ويجلب إلى البيوت السلطانية المؤن والكسوة وغيرها، وهو مدير مخازن البيوت السلطانية من القماش والذهب والحرير، وضبط الواردات والصادرات، وتوزيع الأموال على الفقراء عند ركوب السلطان في موكبه[1].

---

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص433.

[4] السبكي، معيد النعم، ص31؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص240،238،234،187.

[5] القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص187.

[6] المصدر نفسه، ج4، ص238.

[7] المصدر نفسه، ج4، ص186.

[1] الزيدي، العصر المماليكي، ص212.

8.1.2 تقدمة البريد

كان يكتب لولاية تقدمة البريد عن النائب بتوقيع كريم في جميع نيابات الدولة المملوكية[2]، كما يشير التوقيع إلى ذلك :"رسم بالأمر الشريف"[3]، ويتولاها في دمشق أمير عشرة، أو أمير خمسة أو جندي[4]، أما في حلب فيتولاها أمير عشرة، أو مقدم حلقة، أو جندي[5]، وهذه الوظيفة من" الرتب العلية " [6] التي اعتنت بشؤون البريد، والتحدث مع جماعة البريدية في جميع نيابات الدولة المملوكية[7]، ويباشر مقدم البريد كما يقول التوقيع: " هذه التقدمة... وليطر إلى قضاء المهمات الشريفة بأجنحة السداد، وليمتط من جواد الجواد أسبق جواد، وليسو بين البريدية في الأشغال، وليقبل عليهم فيما يرومونه من حسن السفارة بوجه الإقبال، وليسلك سنن الصدق والتقوى، وليجعلها له أحسن سنة، وليلبس سوابغ الإنصاف فإنها من سهام الحال جنّة [8]."

9.1.2 أمير أخورية البريد

وظيفة من وظائف أرباب السيوف وعمل صاحبها الإشراف على خيول البريد بدمشق ونواحيها وعلى من يسوقها ويخدمها مدة سيرها، وله الإشراف على اصطبل البريد، وما فيه من سواس، ولهذا الأمير مرافق يولى عن النائب بتوقع كريم، وهذه الخيول خاصة بنقل البريد فقط[1]، وكان يتولاها أمير عشرة في دمشق، وفي طرابلس وحماة جندي، وكانت ولايتها من النائب.[2]

---

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص219.

(3) المصدر نفسه، ج12، ص434.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص187-188.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص219.

(6) المصدر نفسه، ج12، ص434.

(7) المصدر نفسه، ج4، ص187-188.

(8) المصدر نفسه، ج12، ص434.

(1) البقلي، التعريف،ص47.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص238،187.

10.1.2 شد الدواوين

وظيفة من وظائف أرباب السيوف، ومن الوظائف النافعة للدولة المملوكية التي تدر الأموال لخزينة الدولة، وتعد هذه الوظيفة كما يقول التوقيع: " من مهماتنا الشريفة أعمها نفعاً، وأحسنها في عمارة البلاد، وأكثرها لخزائن الأموال تحصيلاً وجمعاً، وأجمعها لمصالح الأعمال وأضبطها لحواصل المماليك التي إذا أعد منها جبالاً تلا عليها لسان الإنفاق (ويسألونك عن الجبال[3]) ".[4]

ويباشر شاد الدواوين[5] عمله كما يقول التوقيع :"بمعرفة تستخرج الأموال من معادنها، وتستثير كوامن المصالح من مكامنها، وتثمر أحوال كل معاملة بحسن الإطلاع عليها، وصرف وجه الاعتناء إليها، وتفقد أحوال مباشريها، ومباشرة ما يتجدد في وجوه الأموال فيها، وضبط ارتفاعها بعمل تقديره، وحفظ متحصل ضياعها من ضياعه، وصون بذارها عن تبذيره".[6]

ويمضي هذا التوقيع بتوصية شاد الدواوين: " بالرفق الذي ما كان في شيء إلا زانه، والعدل الذي ما اتصف به الملك إلاّ صانه، العفة التي ما كانت في امرئ إلا وفقه ا تعالى بمقاصده وأعانه، وليقدم تقوى ا بين يديه ويعتمد على توفيقه فيما اعتمد فيه عليه إن شاء ا تعالى."[1]وكان يتولى هذه الوظيفة موظف برتبة أمير طبلخاناة، ثم أصبحت أمير عشرة فجندي في جنود الحلقة، ويكتب لصاحبها توقيع عن النائب[2].

11.1.2 شد العشر

وهي وظيفة من الوظائف التي اهتمت في واصل الفرنج،وكان يتولاها أمير عشرة، ثم أصبح جندياً،ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب[3].

---

[3] سورة طه، آية105.

[4] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص181.

[5] شاد الدواوين: كانت مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين، وعلى موظفيها وعادتها إمرة عشرة.

[6] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص181.

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص181.

[2] المصدر نفسه، ج4، ص187،218،238

[3] المصدر نفسه، ج4، ص187

12.1.2 شد الأوقاف

هي وظيفة من وظائف أرباب السيوف التي موضوعها كما يقال التوقيع : "تولية الوقوف في الجامع المعمور بحلب المحروسة، والبيمارستان، والمساجد، والمشاهد بالأماكن والمواقع ظاهرها وباطنها وأعمالها."[4]

ويباشر شاد الأوقاف وظيفته كما يقول التوقيع :" في الوقوف ومصارفها وتتبع، شروط واقفها، بكل ما يعود بتعيير أعمالها وتثمير أموالها، وتدبير أحوالها، مطالباً بحساب في تقدمه وتحقيق مبالغه تكميلاً وإضافة، واحتساباً وسياقه، وليطلب شواهده، وليبن على صحة قواعده، وليلتمس من بواقيه من جهاتها، وليكشف بما يوضحه في سبل الأمانة وجوه شبهاتها."[5]

وكان يتولى هذه الوظيفة بدمشق أمير عشرة أو طبلخاناة، بينما كان يتولاها في حلب مقدم ألف أو أمير طبلخاناة، وتوليته في الأبواب السلطانية الشريفة، أما أوقاف

---

[4] المصدر نفسه، ج12، ص181.

[5] المصدر نفسه، ج11، ص48.

دمشق فتوليته من النائب[1]

13.1.2 شد الزكاة

هي وظيفة من وظائف أرباب السيوف التي موضوعها التحدث عن متجر الكارم ونحوه، وكان يتولاها في بداية العصر المملوكي أمير عشرة ثم أصبح جندياً، وكانت توليته بتوقيع عن النائب.[2]

14.1.2 شد دار الطعم

هي وظيفة من وظائف أرباب السيوف بمثابة صاحب الوكالة بالديار المصرية، وكانت توليته عن النائب، ويتولاها أمير عشرة أو مقدم حلقة أو جندي.[3]

2.2 وظائف أرباب القلم

الوظائف التي شغلها أرباب القلم،وهي صنفان :

الأول: أرباب الوظائف الدينية، وتمثلت بعدد من الوظائف، وهي :

1.2.2 قضاة القضاة

حظيت هذه الوظيفة باهتمام من قبل السلاطين منذ بداية الدولة المملوكية،[4] وموضوعها أن يصبح القاضي كما يقول التوقيع : " فيها عن رسول ا صلى ا عليه وسلم نائباً وبشرعه قائماً، ويتقلدها تقلد من أنه قد أصبح على حكم ا مقدماً، وعلى ا قادماً، ويثبت من يعتصم با في حكمه فإن أحد الخصمين قد يكون ألحن بحجته وإن كان ظالماً، ويلبس لهذا المنصب حلة تمنع المبطل من الإقدام عليه، وتدفع الظالم عن التطاول إلى أمر نزعه من يديه، وتؤمن الحق من امتداد يد الجور

---

[1] القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص186، 218.

[2] المصدر نفسه، ج4، ص187.

[3] المصدر نفسه.

[4] ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج7، ص120؛ العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص87.

والحيف إليه، وليسو بين الخصمين في مجلسه ولحظه، ويعدل بينهما في إنصافه ولفظه: وليعلم ذو الجاه أنه مساو في الحق لخصمه، مكفوف باستماع محبته عن الطمع في ظلمه، ولا ينقض حكماً لم يخالف نصاً ولا سنة ولا إجماعا، وليشارك فيما يجهله من القضايا غيره من العلماء ليتزيد بذلك مع اطلاعه اطلاعاً، وليغتنم في ذلك الاستعانة بآرائهم، فإن ا تعالى لا ينتزع هذا العلم انتزاعاً، وليسد مسالك الهوى عن فكره، ويصرف دواعي الغضب لغير ا عن المرور بذكره، وليجعل العمل لوجه ا نتيجة علمه، وليحكم بما أراه ا (وا يحكم لا معقب لحكمه)."[1]

يشير التوقيع السابق إلى موضوع وظيفة قضاء القضاة وهو النظر في الأحكام الشرعية وتنفيذها، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم، وقد اقتصرت هذه الوظيفة على قاض واحد من أي مذهب شيء كان، ثم جرى تعديل بتعيين أربعة قضاة في معظم نيابات بلاد الشآم، فجعل لكل مذهب قاض خاص لمذهبه الذي يسير عليه عند حكمه لقضاياه، وقد كان لهؤلاء القضاة مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف، ويحضرون الاجتماعات الرسمية المتصلة بالشؤون الداخلية.[2]

كما كان لهذا المنصب أهمية خاصة عند العناصر السكانية في المجتمع الشآمي لما له من جانب قيادي عندهم في تهيئتهم للدفاع عن البلاد كما حصل في سنة 1299م عندما فتح قضاة دمشق المساجد والمدارس للتدريبات العسكرية من أجل الاستعداد للدفاع عن المدينة ضد قوات غازان [3]، وولاية هذا المنصب بمرسوم سلطاني من القاهـرة في كل من نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة حماة، أما النيابات الأخرى فكانت من قبل قاضي دمشق[1]، وأعلى القضاة من المذهب الشافعي، ويليه من المذهب الحنفي، فمن المذهب المالكي، وأخيراً من المذهب

---

[1] سورة الرعد، آية 41.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص35-36.

[3] لابدوس،مدن الشآم، ص210.

[1] القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص192، 221، 238.

الحنبلي، وامتاز القاضي الشافعي ببعض الاختصاصات كتولية النواب في سائر بلاد القطر لا يشاركه فيها غيره، كما أفرد بالنظر في مال الأيتام والأوقاف [2].

2.2.2 قضاء العسكر

وجدت هذه الوظيفة منذ أيام الفاطميين ولكنها لم يكن منفصلةً عن وظيفة قاضي القضاة، ولما كانت دولة المماليك دولة عسكرية، فكان من يشغل هذه الوظيفة جندياً، وعمله يشمل شؤون العسكر، ومن يختص بهم، والذين تقبل شهاداتهم، وكان له أن يتخذ معه من عمله كاتبا يكتب للناس وعليه أن يقبل من الجند من كان ظاهره العدالة، فإن الشهود المعدين للشهادة يعز وجودهم بين العسكر، وكان له منزل معروف يقصد فيها إذا نصبت الخيام، ويكون مستعداً للأحكام التي يكثر الفصل فيها في المعسكر كالغنائم، الشركة، والقسمة، والمبيعات، ويفصل بين الخصوم لئلا يكون في ذلك تشاغل في مواقع الحرب.

تعد هذه الوظيفة جليلة القدر، كانت منذ زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وموضوعها كما يقول التوقيع :" أن يفوض قضاء العساكر المنصورة الشريفة : على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، وأن تبسط بحكمته في كل ما يتعلق بذلك من أحكام الشرع الشريف، فليحكم في ذلك كله بما أراد ا من علمه، وآتاه من حِكمه وحكمه، وتبين له سبيل الهدى، وعينه لبصيرته من سنن نبيه صلى ا عليه وسلم التي من حاد عنها فقد جار واعتدى، وليقف من الأحكام عند ما قررته الشريعة المطهرة من أحكام ا التي لا يعقلها إلا العالمون، ويأمر كل من المتقاضين بالوقوف عندما حدد له: (ومن يتعد حدود ا فأولئك هم الظالمون)[1]".

وكان قاضي العسكر يحضر مع القضاة المتقدم ذكرهم في دار العدل الشريف، ويحضر الاجتماعات الرسمية المتصلة بالشؤون الداخلية، ووجدت هذه الوظيفة في جميع نيابات الدولة المملوكية ما عدا نيابة الكرك، وكل نيابة كانت تحتوي على

---

[2] السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص99، 165، 166؛ تيمور،احمد، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة، لجنة نشر المؤلفات التيمورية،القاهرة، ط1، 1969، ص23-24

[1] سورة البقرة، آية 229.

قاضيي عسكر أحدهما شافعي المذهب والآخر حنفي المذهب كما في دمشق، وحلب، وصفد، وطرابلس، أما حماة ففيها قاضي عسكر واحد من المذهب الحنفي[2].

3.2.2 إفتاء دار العدل

هي وظيفة جليلة لصاحبها مجلس بدار العدل، يجلسه مع القضاة الاربعة، ويجلس معهم السلطان لفصل الخصومات والافتاء فيما يطرأ من الاحكام، وتشمل هذه الوظيفة اربعة مفتين، كل منهم يمثل مذهباً من المذاهب الاربعة، وجلوسهم دون قضاة العسكروهي وظيفة من الوظائف الدينية لأرباب العلم، وموضوعها على نحو ما تقدم من قضاء العسكر، ففي دمشق وحلب وطرابلس فقيهان : شافعي، وحنفي، أما نيابتا حماة وطرابلس فقد خلتا من هذه الوظيفة، وولاية هذه الوظيفة بتوقـيع كريم عن النائب[3].

ويباشر المفتي كما يقول التوقيع :" هذه الوظيفة السنية مفجراً ينابيع العلوم في أرجائها، محققاً للفتاوي بتسهيل مواردها وتقريب أرجائها، موضحاً طرقها بإقامة براهينه وأدلته، مبدياً وقائعها التي يشرق بها أفق الفكر إشراق السماء بنجومها والأفق بأهلّته، مظهراً من غوامضها ما يقرب على الإفهام مناله، ويفسح بحياد القرائح مجاله، وينقح لكل ذي ترو رويته، ولكل مرتحل بديهته وارتجاله فإنه الكامل الذي قطع إلى بلوغ الغاية مسالك الليالي، والإمام الذي غاص فكره في بحر لجج المعاني، فاستخرج منها مكنون اللآلي، مع أن علمه المهذب غني عن تنبيه الوصايا، ملي بما يلزم هذه الوظيفة من الخصائص والمزايا، فإن البحر يأبى إلا تدفقاً والبدر إلا تألقاً، وا تعالى يزيده من فضله، ويزين به أفق العلم، ويزيد منا دنواً قرب محله."[1]

---

[2] القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص36، 192، 221، 238.

[3] المصدر نفسه، ج4، ص36،192،221،234،238،240.

[1] القلقشندي، صبح الأعشى،ج11، ص209.

4.2.2 وكالة بيت المال

هي وظيفة عظيمة الشأن، رفيعة القدر، وكان لمن يتولى هذه الوظيفة التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته مِن اراضٍ ودور وغير ذلك، وكانت هذه الوظيفة لاتسند إلا لذوي الهيبة من شيوخ العدل، ويفوض اليه عن السلطان بيع مايرى بيعه من كل ما يمتلك، ويجوز التصرف فيه شرعاً، وعتق المماليك، وتزويج الإماء، وتضمن ما يقتضي الضمان.[2]

ويعد بيت المال كما يقول التوقيع :" نظام الإسلام، وذخر الأنام وفيه محصول المسلمين تحت نظر الإمام، وفيه مادة المجاهدين في سبيل على تطاول الأيام، وإليه تجبى القناطر المقنطرة من الأحوال، وعنه تصدر المبيعات من الأملاك ما بين أراض وأبنية ومحال،" لذلك ينبغي أن يكون عليه وكيل " هو الذّاب عن حوزته، القائم بتأمين روعته، المجتهد في غير رجعته "، ويشترط عليه " أن يكون من العلماء الأئمة، المعول عليهم في الأمور المهمة، البصير بما يترجح به جانب بيت المال المعمر، ويكشف كل غمة، الطريق في السيادة التي انقادت إليها السجايا الجميلة بالأزمة."[3]

هذه الوظيفة جليلة القدر، كبيرة الشأن، ولا يتم توليتها إلا من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف، وإن لها مجلساً بدار العدل كمجلس وكيل المال بالديار المصرية.[4]

ويقوم الوكيل كما يقول التوقيع بمباشرة:" هذه الوظيفة محترزاً في كل ما يأتيه ويذره، ويقصده ويحرره ويورده ويصدره، ويبنيه ويقدره، ويخفيه ويظهره، ويبديه ويستره، ويدينه ويحضره، ويقرر جانب بيت المال المعمور، بما فيه الخط الموفور، والغبطة في كل الأمور، وهو عالم بما فيه صلاح الجمهور، ومن رغب في ابتياع أراض وأملاك ورحاب فساح، مما هو جارٍ في ملك بيت المال فليوفر جانب القيمة على ما فيه الصلاح، وهو بحمد ا من بيت الدين والصلاح والإصلاح، وهو يقوي بإسناده الأحاديث الصحاح، ومن له حق في بيت المال

---

(2) البقلي، التعريف،361.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص185.

(4) المصدرنفسه، ج4، ص36،193،221،238.

فليسمع دعوى مدعيه، ولا يصرف درهماً ولا شيئاً إلا بحق واضح فيما يثبته فيه، وهو وكيل مأمون في تأتّيه ومعنى الوكيل الذي يوكل إليه الأمور الذي يليه."

ويمدح التوقيع الوكيل فيقول فيه:" هو الراقي هضبة المآثر، الطالع ككوكب مجده الساخر، المستحق لكل ارتقاء على المنابر، ويعد سلفاً كريماً نصيراً في المغافر، ويمت ببيت بحره الزاخر، وله في مذهب الإمام الشافعي رضي ا عنه بحث فاق به الأشياء والنظائر، وعنده علم بالمسائل المضروب مثلها السائر."[1]

5.2.2 الحسبة

إن الحسبة كما يقول التوقيع :"هي قانون جواد الأوضاع، ومضمون مواد الإجماع تجمع إلى الشريعة الشريفة سياسة يرهب جدها، ويرهف حدها، وتتخشى الرعايا سطوات مباشرها، وتتنحى عما تصبه سيول بوادرها وأصحابها الآلة التي هي أخت السيف في التأثير، ولكل منها سطوة تخاف لا فرق بينهما إلا ما بين التأنيث والتذكير"[2]، وهي من الوظائف الدينية الرفيعة الشأن ذات الأثر الحيوي في الحياة الاجتماعية والثقافية[1]، كما يقول التوقيع:" هي من أجمل المناصب التي تتعلق عواليها بيد متوليها، وتؤمل منازل البدور."[2]

وموضوع هذه الوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراعاة العدالة والأمانة فيما يتصل بالتجارة والإنتاج الصناعي جودة وسعراً، ومراعاة الأخلاق الإسلامية والآداب العامة،[3] فيباشر المحتسب وظيفته كما يتابع التوقيع:" معطياً هذه الوظيفة من حسن النظر حقها، محققاً بجميل تصرفه تقدم أولويته وسبقها وليكن لأمر الأقوات ملاحظاً، وعلى صنع ذوي الغدر من الاحتكار المضيق على الضعفاء محافظاً، وعلى الغش من الأقوات مؤدباً، ولإجراء الموازين على حكم القسط مرتباً، ولمن يرفع الأسعار لغير سبب رادعاً، ولمن لا يزغه الكلام من المطففين بالتأديب

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص185-186.

[2] المصدر نفسه، ج12، ص61،62.

[1] النويري، نهاية الأرب، ج6، ص311؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص36.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص61.

[3] النويري، نهاية الارب، ج6، ص،311؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص36.

وازعاً، وليقم الأشياء محرراً، ولقانون الجودة في المزروع والموزون مقرراً، ولذي الهيئات بلزوم شروط المروءة آخذاً، وعلى ترك الجمع والجماعات لعامة الناس مؤاخذاً، ولتقوى ا تعالى في كل أمر مقدماً وبما يخلصه من ا تعالى لكل ما نفع به المعاملات بين الناس مقوماً"، ويشترط في المحتسب أن يكون حراً، عدلاً ذا رأي وصراحة في الدين،[4] وتكون ولايته عن النائب بتوقيع كريم.[5]

6.2.2 نقابة الأشراف

كانت توجد في مصر والبلدان التابعة لها ويتولاها احد شيوخ هذه الطائفة، ويكون جليل القدر وله النظر في امورهم، ومنع من يدخل منهم من الادعياء، وإذا تشكك في احد طلب منه اصل نسبه، وعليه ان يعود مرضاهم. ويمشي في جنائزهم، ويسعى في حوائجهم، ويأخذ على يد المعتدي منهم، ويمنعه من الاعتداء، ولا يقطع امراً إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك، وللنقيب الاهتمام بأولاد علي بن ابي طالب، رضي ا عنه، من فاطمة بنت رسول ا صلى ا عليه وسلم.

تعد هذه الوظيفة وظيفة شريفة ومرتبة نفيسة[1]مباركة، لما لها من " بركات ترضي سيد المرسلين وتعجبه، ويسطر ا الأجر لفاعله ويكتبه "[2]، وموضوع هذه الوظيفة التحدث عن ولد علي بن أبي طالب، كرم ا وجهه، من فاطمة بنت الرسول، صلى ا عليه وسلم، في الفحص عن أنسابهم، والتحدث عن أقاربهم، والأخذ على يد المتعدي منهم[3]،كما يقول التوقيع :" يعظم فخرهم ويفخمه، ويحفظ أنسابهم، ويعتقل بمكارمه أحسابهم، وينمي بتدبيره ريعهم، ويتابع تحت ظل هذه الشجرة الزكية ما زكى ينعهم، ويحفظ في ودائع النسل، ويصد عن شرف أرومتهم

---

[4] الماوردي، ألأحكام السلطانية، ص241.

[5] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص193، 221، 234، 238.

[1] البقلي، التعريف، ص.351

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج11 ص163.

[3] المصدر نفسه، ج4، ص36، 131، 221.

من الأدعياء المدعين بكل بسل، ويحرس نظامهم ويوالي إكرامهم، ويأخذهم بمكارم الأخلاق، ويمدهم بأنواع الرقاد والإرفاق، ويتولى ردع ما بينهم إذا لم يسمع".[4]

وكان يعبر عن نقابة الأشراف في زمن المتقدمين بنقابة الطالبيين، وولاية هذه النقابة في الدولة المملوكية عن النائب بتوقيع كريم.[5]

7.2.2 مشيخة الشيوخ

تعد هذه الوظيفة من الوظائف الدينية التي موضوعها التحدث عن جميع الخوانق والفقراء بالنيابة وأعمالها، فيباشر الشيخ كما يقول التوقيع :" هذه المشيخة المباركة بصدر للسالكين رحيب، وبر للسائلين مجيب، وفضل يقول الرائد والمريد بدار إقامته : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، وبشر وبشرى ملآن عين المجتلي. ويد المجتدي، وعطف ولطف إذا قال الذكر لمن مضى: راح مالكي ! قال المعاين: وجاء سيدي، وليراع أمور الخوانق الشآمية ما غاب منها وما حضر، وما سمع وما نظر، وليهذب قلوب ساكنيها حتى يعود كإخوان الصفاء من المودة قوم كانوا إخوان الصفا من الحجر، قائماً بحقوق الرتبة قيام مثله من أئمة العلم والعمل، داعياً لهذه الدولة العادلة فإنه أقصى دواعي الأمل معرباً، لأن العربية من علومه، عن الإيضاح غنياً عن تفصيل الجمل."[1]

ويعد منصب مشيخة الشيوخ من " أجل المناصب الذي تجتمع فيه قلوب الأولياء على الطاعة"،[2] وولايته عن النائب بتوقيع كريم، وربما كانت من الأبواب الشريفة، وعادتها أن يكون متوليها شيخ الخانقاة.[3]

---

(4) المصدر نفسه، ج11 ص163، 164.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص36، 131، 221.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص412.

(2) المصدر نفسه، ج12، ص414.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص193، 221.

8.2.2 التداريس

هي وظيفة التدريس، وكان يقوم بهذه الوظيفة أساتذة وشيوخ، واختلفت أنواع التداريس باختلاف العلم الذي يدرسه الأساتذة فمنها: الفقه، والحديث، والتفسير والنحو، واللغة، وتختلف منزلتها باختلاف حال من يتولاها بالرفعة، وولايتها من النائب بتوقيع كريم، ولا يولي السلطان فيها ألا من عظم خطره وارتفع شأنه[4]، وقد خصصت الدولة لهذه التداريس مبالغ مالية، ففي سنة 877هـ /1472م رتبت الدولة لمدرسة في القدس مرتبات شهرية لكل من المدرسين والطلاب[5].

وموضوع التداريس إلقاء المدرس المسـائل العلمية للطلبة، وذكر الدروس النافعة، ويباشر المدرس التدريس كما يقول التوقيع:"مظهراً من فوائده الجليلة ما هو في طي ضميره، مضمراً حسن بيانه ما يستغني بقليله عن كثيره، مقرباً إلى أذهان الطلبة بتهذيب ألفاظه الرائعة ما يفيد، مورداً من علومه المدونة ما يجمع له بين نوادر المقدمات ومدارك التمهيد، موفياً نظرها بحسن التدبير حق النظر، مؤخراً رزقها بما يصدق الخُبر فيه الخبر، قاصداً بذلك وجه ا الذي لا يخيب لراجٍ أملاً معاملاً فيه معاملة من يعلم أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وملاك الوصايا تقوى ا تعالى[1].

3.2 أرباب الوظائف الديوانية.

وتمثلت بعدد من الوظائف، منها:

1.3.2 الوزارة:

تأخر ظهور منصب الوزارة إلى العصر العباسي، فلم يكن هذا المنصب موجوداً ضمن مؤسسات الدولة الاسلامية من قبل، وهذا ما عبّر عنه ابن الطقطقي بقوله:"والوزارة لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، أما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع

---

[4] البقلي،التعريف، ص74.

[5] الحنبلي، ألأنس الجليل، ج2، ص429.

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج11،ص241.

وحاشية فإذا حدث أمر استشار ذوي الحجة والآراء الصائبة فكل منهم يجري مجرى الوزير"[2].

وتختلف كلمة "وزير" في مدلولها، فهناك ثلاثة أوجة في اشتقاقها أحدهما مأخوذة من الوزر وهو الثقل،لأنه يحمل السلطان وزره أي أثقالة، والثاني أنه مشتق من الأزر وهو الظهر لأن السلطان يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره، والثالث انه مشتق من الوزر وهو الملجأ ومنها قولة تعالى:" **كلا لا وزر**"[3]، اي لا ملجأ، لأن السلطان يلجأ الى رأيه ومعونته في امور الناس[4].

وترد كلمة وزير في القرآن الكريم في قصة موسى، عليه السلام، ونبوته، إذ يطلب النبي موسى، عليه السلام، الى ا ، سبحانه وتعالى، ان يشد ازره بأخيه في

دعوته فيقول:" **واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي. أشدد به أزري**"[1].

والوزارة هذه الرتبة العلّية بما حلى به الدين[2]، وذروة الدولة وسنامها، وتاج المراتب وإكليلها، وعتاد الخزائن الجامع دقيق المصالح الإسلامية وجليلها[3]" من أجل رتب أرباب القلم؛ لأن متوليها يأتي في المرتبة الثانية بعد السلطان، فالوزير أقيم لينفذ كلمة السلطان[4]"وليبادر إلى تدبير أمور الأقاليم بأقلامه المباركة، ويمض القواعد على ما تراه آراؤه المنزهة من المنازعة في الأمر والمشاركة، ولينشر كلمة العدل التي أمر ا بإضافة الأحسن إليها، ويمت بدع الظلم، فأن ا يشكره على تلك الأمانة ويحمده عليها، ويسهل رزق الصدقات، ووظائف القربات، فإن ذلك من أجل ما قدمته الطائفة الصالحة بين يديها، وليكثر بذلك جنود الليل فأنها لا تطيش

---

[2] ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا العلوي (ت709هـ/1309م)، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الاسلامية، المطبعة الرحمانية، مصر، 1927،ص210.

[3] سورة القيامة، آية 11

[4] الماوردي، قوانين الوزارة.

[1] طه، آية 29-31

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص277.

[3] المصدر نفسه، ج4، ص151.

[4] العمري مسالك الأبصار، ص107، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص28، المقريزي، الخطط، ج3،ص90.

سهامها،وليتوق في محاربتها يظلم فإنه لايداوي بالرقي سهامها وليعوذ بتمائم التيسير مواهبنا فأن تمام النعمة تمائمها، وليطلق قلمه في البسط والقبض، وليعد بتدبيرها على هذا المنصب الشريف بهجته، ويتدارك بآرائه دماءه، وبدوائه مهجته،ويصن عن شوائب الظلم حرمته،ويخلص ذمتنا من المآثم وذمته، وليعلم أن أمور المملكة الشريفة منوطة بآرائه وأحكامه، مضبوطة بأقواله وأقلامه، فليجعل فكره مرآه تجلو عليه صورها، ويقم آراءه صحفاً تتلو لديه سورها، ويأمر النواب بما يراه من مصالحنا ليلبوه سامعين، ويسهر جفنه في مصالح البلاد والعباد لترقد الرعايا في مهاد الأمن، ويعضد الشريعة المطهرة بتنفيذ أحكامها، وإعلاء أعلامها، وإظهار أنوارها، وإقامة رفعة ا من منارها، ولا يعدل في أمور

مباشرتها بالممالك الشريفة عن آرائه، ولا يمض فيها عزلاً ولا ولاية إلا بعد تتبعه الواجب في ذلك واستقرائه[1].

تلك الصورة المثلى للوزارة على عهد الدولة المملوكية، أما الواقع فربما كان مخالفاً لذلك اشد المخالفة فالوزير في هذه الدولة كان مقيد الإرادة، إذ تقدم عليه منصب اخر هو منصب نيابة السلطان، فكان الوزير يأتي بالمرتبة الثالثة بعد السلطان والنائب، ويصف ابن فضل ا العمري مدى ما اعترى هذا المنصب من هزال فيقول: " لكنها لما حدثت عليها النيابة تأخرت وقعد بها مكانها، حتى صار المتحدث بها كناظر المال لا يتعدى الحديث فيه، ولا يتسع له التصرف في مجال، ولا تمتد يده في الولاية والعزل لتطلع السلطان الى الإحاطة بجزيئات الأحوال".[2]

وُأسندت هذه الوظيفة في بعض الأحيان لأناس من أرباب السيوف الأمراء مثلاً، كالأمير شمس الدين سنقر الأعسر الذي تولاها في عام 1296م [3]، ومن أسباب تأخر هذا المنصب أن الدولة المملوكية استحدثت منصب النيابة، وقد حل هذا المنصب مكان الوزير، فالوزير عادة بعد السلطان، فاستقر أمره للبحث في الأمور المالية؛ لأن النائب تحكم بكل صغيرة وكبيرة في الدولة فضعف أمر الوزارة حتى أنها ألغيت في سنة 730هـ/ 1329م في عهد الناصر محمد بن قلاوون[4].

وترفع كثير من أمراء المماليك عن الوزارة وتطلعوا لمنصب النيابة، لان الوزير كل اختصاصه جباية المال، فيقول ابن خلدون: "فصارت مرؤوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة، وصار صاحب الأحكام والنظر بالجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد، وبقي اسم الحاجب في مدلوله، واختص اسم الوزير

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص277-278.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص28.

[3] ضومط، الدولة المملوكية، ص70.

[4] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص28؛ بيضون وآخرون، تاريخ المغول، ص142.

عندهم بالنظر بالجباية".[1]

وكان يتعاور على منصب الوزارة أرباب السيف وأرباب القلم، فإذا كان الوزير من أرباب القلم سمي بالصاحب، وإذا كان من أرباب السيف أكتفى بتلقبه بالوزير[2].

وكان السلطان يعين احياناً وزيرين في وقت واحد احدهما للصحبة، ويسمى" الصاحب"، ويتنقل مع السلطان ويرافقه في اسفاره وحروبه ليقوم بمهام الوزير ويصرف شؤون الوزير، والثاني " الوزير" من أرباب السيف والقوة ويحضر مجالس السلطان ويصرف أمور الدولة.[3].

يتبين مما سبق أنه لم يكن للوزارة شأن كبير في دولة المماليك، ولم يبرز فيها وزراء، وهذا وضع طبيعي في دولة عسكرية قامت على القوة ووجد فيها منصب النائب الذي يتحكم بكل صغيرة وكبيرة فأضعف أمر الوزارة وقلل من أهميتها. وتنقسم الوزارة في العصور الإسلامية الى نوعين، وزارة تنفيذ ووزارة تفويض، ويكون الوزير في وزارة التنفيذ منفذاً لأوامر السلطان، بحيث لا يقعد ولا يبرم أمراً إلاّ بعد استشارة السلطان، وكان هذا في عهود الخلفاء ذوي الشخصيات القوية والتي كانت لا تسمح للوزير أن يطغى أو يتبدد بالحكم دونهم ويكون الوزير في النوع الثاني مفوضاً من السلطان بمباشرة أمور الدولة أي بمعنى أخر يتولى بنفسه الحكم دون السلطان، ولا يكون هذا فيه فترات الضعف أو عندما يكون الخلفاء اطفالا صغارا أو شخصيات ضعيفة لا حول لها ولا قوة.[4]

وكان الوزير يتقاضى راتباً شهرياً، ويضاف إليه الرواتب الجارية له في كل يوم من اللحم، والخبز، والشمع، والزيت، والكسوة، والأضحية، والحلوى في

---

[1] أمين، مجتمع المصري، ص38

[2] حسن، علي إبراهيم، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، مصر ط1، 1948م،ص225.

[3] الزيدي، العصر المملوكي ص216.

[4] الماوردي، الاحكام السلطانية والولايات الدينية، ص39

رمضان[1]، وكانت ولايته من الأبواب السلطانية الشريفة[2].

وكان يعاون الوزير عدد من الموظفين أهمهم ناظر الدولة المعبر عنه في الدواوين بالصحبة الشريفة، وكان يتحدث مع الوزير في كل ما يتحدث فيه، ويشاركه في الكتابة في كل ما يكتب فيه، وإن كان الوزير من أرباب السيوف، كان الناظر يختص بمراقبة حسابات الدولة، وإليه ترجع سائر الأمور المالية في كل أمور الدولة[3]، وكثيراً ما يرقى الوزراء من بين شاغلي وظيفة ناظر الدولة[4].

2.3.2 كتابة السر

تقول العامة كاتم السر ولأنه يكتم سر السلطان، ويوقع على القصص بدارالعدل وغيرها، ويجلس على يسار السلطان بدار العدل لخلاص المظالم، ويخلع عليه السلطان في التشاريف، ويقرأ موجز الرسائل على السلطان، ويتولى الإجابة عنها، وتعريف النواب في الوصايا،وعلية النظر في تجهيز البريد، والنجابة، وما يبعث فية من المصالح، ومعرفة حقوق ذوي الخدمة والنصيحة ومعرفة، عوائد البروالإحسان، والنظر في امر الكِشافة، والنِظارة، وابراج الحمام، وصرف نظر السلطان أو النائب إلى رسل الملوك الواردة، وأن لا يستكتب في ديوانه إلا من علم بصلاحه لذلك.[5]

وعرف ابن الأثير الكاتب بقوله: "الكاتب عندي من إذا كلفته أن يكتب عنك كتاباً في أمر من الأمور، وأفضيت إليه المعنى جملة واحدة، فصله وأتى به على وجه إذا تأملته، قلت: هكذا كان في نفسي، ولكني لم أقدر أن أعبر عنه، فهو ينطق عن خاطرك

---

[1] العمري مسالك الابصار، ص107.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص188.

[3] المصدر نفسه، ج4، ص29، 188.

[4] ابن الصيرفي، نزهة النفوس والابدان، ص100.

[5] البقلي، التعريف،ص 283.

بما لا تقدر أنت أن تنطق به"[1]. وهو تعريف ينطبق على كتاب هذا العصر، إذ كانوا ينشئون الرسائل، وبخاصة الديوانية، بناءً على معانٍ مجملة فصلوها، وكان كاتب السر يلقب صاحب ديوان الإنشاء بالشآم المحروسة، وله رفعة القدر والمنزلة العالية[2] لأنه "لسان السلطان ويده"[3]وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وقد عد صاحب هذه الوظيفة برتبة وزير[4]، فكاتب السر كما يقول التقليد:"المتفرد بتقديم البريد وعرضه، ومباشرة ختمه وفضه، وقراءته بين أيدينا، واستخراج مراسمنا الشريفة في كل مناب، ومشافهة وخطاب، وابتداء وجواب، وملاطف ومكبر، ومقدم ومؤخر، ومكمل ومشطر، وإليه أمر البريد والقصاد والنجابة، ومن اشتمل من الدجى جلبابه، أو ألقته إلى ملاءة الصباح المنشورة يد ليلة منجابة، وتعيين من يرى تعيينه منهم في المهمات الشريفة السلطانية، والمصالح المقدسة الإسلامية، وإليه الحمام الرسائلي، وتزجيته، وزجالته ومدرجته، ومن يصل من رسل الملوك إلى أبوابنا العالية، وجميع من يكاتب الدولة الشريفة من كل منتسب وغريب، وبعيد وقريب وقراءة القصص لدينا، والكتابة على ما يسوغ كتابه مثله، وأخذ العلامة الشريفة من يده.

وأما من نستكتبهم عنا في ممالكنا الشريفة فهو المقلد لأعبائهم، والمخلّى بينه وبين ما يراه في اجتبائه، يستكتب كل أحد فيما يراه، ويرفع بعضهم فوق بعض درجات منهم مستيقظ ومنهم نائم في غمرات كراه، كل هذا من غير معارضه له فيه، ولا اعتراض عليه في شيء منه، ويبلغنا مهماتنا الشريفة ويتلقى عنا، ومنه إلينا وإليه منّا.

---

[1] ابن الأثير، ضياء الدين، الوشي المرقوم في حل المنظوم، تحقيق: جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1989م، ص57.

[2] الظاهري النجوم الزاهرة، ج3، ص156.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص302.

[4] الظاهري النجوم الزاهرة، ج3، ص156.

وأما ما يرد عليه من الرسائل عنا بما يكتب به فيمشي منه ما لا يمكن وقوفه، ويراجعنا فيما لا يكون إلا بعد مراجعتنا تصريفه.[1]

يشير التقليد السابق إلى مهمة كاتب السر وهي تلقي المكاتبات الرسمية الخاصة بالدول، وإعداد المكاتبات من الرسائل الرسمية وتبليغها إلى النواب والولاة في داخل الدول الشآمية، وتقديم البريد وعرضه، وتوزيع مهام أعوانه .

أما الأعوان لهذه الوظيفة، فكانوا على طبقتين أولاهـما : طبقة كتاب الدسـت وهم " الذين يجلسون مع كاتب السر لمجلس السلطان بدار العدل في المواكب على ترتيب منازلهم بالقدمة ويقرؤون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم، ويوقعون على القصص كما يوقع عليها وقد أطلق عليهم ذلك اللقب،[2] كما أطلق عليهم لقب الموقعين لأنهم يوقعون ما يأمر به السلطان على حواشي قصص المظالم.[3]

ثانيهما : كتاب الدرج الذين تتمثل وظيفتهم في كتابة توقيعات كاتب السر أو كتاب الدست أو إشارة النائب أو إشارة الوزير ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات.[4]

3.3.2 نظر الجيش

كان جيش المماليك في وقت السلم والحرب يتطلب من الدولة الإشراف عليه، وكان يقوم بذلك ديوان في القلعة، يعمل فيه أرباب الأقلام. بحكم أن العمل فيه من الوظائف الديوانية، فكان هذا الديوان يسمى ديوان الجيش أو الجيوش، ووظيفته تسمى: نظر الجيش، ومن يقوم به يسمى: ناظر الجيش، وكان يعاونه عدد من الكتاب. وكان أساس عمل ديوان الجيش هو تسجيل أسماء الجنود وأعدادها ونفقاتها،

---

(1) القلقشندي،صبح الأعشى ج11، ص303.

(2) العمري مسالك الأبصار، ص100- 102؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص30.

(3) الصفدي، مبيد النعم، ص31؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص30.

(4) القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص30، 189.

وكان قيدهم عادةً تحت أسماء أمرائهم، بحيث أن أي جندي لا يستطيع أن ينقل من قيده مع أمير إلى أمير آخر.

ويذكر المؤرخون أن الأمير لا يأكل إلا وجميع جنوده معه،ويأخذ غلمان أجناده كل يوم الطعام من مطبخه.[1]

تختص هذه الوظيفة بالتحدث عن الإقطاعات الموجودة في النيابات، والكتابة بالكشف، وأخذ خط الديوان بعد أخذ رأي النائب، وضبط الإقطاعات للأمراء والأجناد في النيابة، ثم الكتابة إلى الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، ولهذه الوظيفة ديوان خاص، وعلى رأس هذا الديوان ناظر، وهو كما يقول التوقيع:"يحرر جهات أرزاقها، ويضبطها مخافة إختراقها، ويأمر بنظم جرائد أسمائهم وإنفاقها، ويتقن الحلي، ويبين يوم لعرض محله في ارتقاء العلى، ويصون المحاسبات لكل منفصل ومتصل في الخلل، ويسرع في الدخول والخروج، ما يصل به لكل حقه عند استحقاق الأجر.[2]

من هذا النص تتضح لنا أهمية ناظر الجيش وخطورة منصبه والمهام الموكلة إليه، فهو الذي لديه سجلات أسماء الجند وقادة الجيش، وإذا مات أحد الأجناد أوفصل يحل محله آخر ويتناول إقطاعه.

و يساعد الناظر عدد من الموظفين، منهم: صاحب ديوان الجيش الذي ينوب عن الناظر، عند غيابه، ومنهم مستوفي الجيش ومهمته تحديد مرتبات الجند التي كانت تدون في كشوفات خاصة وحفظ بياناتها في سجلاته، ومنهم مستوفي الرزق الذي يصرف هذه المرتبات[3]، ولمساعدة هؤلاء مجموعه من الكتاب والشهود من ذوي الخبرة، وولايتهم عن النائب بتواقيع كريمة.

---

[1] البقلي، التعريف، ص243.

[2] القلقشندي،صبح الأعشى، ج11، ص323.

[3] بيضون وآخرون، تاريخ المغول والمماليك، ص142.

4.2.2.2 نظر المهمات الشريفة

هي وظيفة جليلة لأرباب القلم، وموضوعها التحدث في أمور الاحتياجات السلطانية وكان متوليها رفيقاً لشاد المهمات من النائب أو حاجب الحجاب، و كانت تضاف إلى الوزارة أحياناً، وأحياناً تفرد حسب ما يراه السلطان، وولايتها من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، أما الذي يساعد الناظر من كتاب وشهود فكانت توليتهم عن النائب بتواقيع كريمة.[1]

5.2.2.2 نظر الخاص

هي وظيفة لارباب القلم، وكان متوليها ينظر في خاص أموال السلطان[2].

ويعد "نظر الخواص هو الذروة العالية"[3]، وموضوعها التحدث بالمستأجرات السلطانية وما يجري مجراها، و ربما أضيفت إلى الوزارة،[4]ويباشر الناظر كما يقول التوقيع: "هذا المنصب الكريم بتدبير يصلح الفاسد، وينفق الكاسد، ويكتب الحاسد، ويكثر الأموال بسعد الأحوال، ويثمر الذخائر، ويسر السرائر، ويوفر حاصل الجواهر، ويكثر التحف، من كل صنف فاخر، ويوفي المهمات الشريفة معها في الأول والآخر، وينشر التشاريف كالأزاهر، وليختر الأمناء الثقات، وليحرر كل منهم الميقات، وليبع لخاصنا الشريف ويشتر بالأرباح في سائر الأوقات، وليتلاق تجار الكارم الواردين من عدن، باستجلاب الخواطر، وبسط المنن، ونشر المعدلة عليهم ليجدوا من اليمن ما لم يجدوه في اليمـن، وكذلك تجـار الجهـة الغربية الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والإفرنج فليحسن لهم الوفادة،وليعاملهم بالمعدلة المستفادة، فإن مكاسب الثغر

---

[1] القلقشندي،صبح الأعشى، ج4، ص190.

[2] البقلي التعريف، ص343

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص 319.

[4] المصدر نفسه، ج4،ص190.

منهم وفي ا الحسنى وزيادة "[1]

يشير التوقيع السابق إلى مهام الناظر الخاص منها: إكثار الأموال السلطانية، وتوفير التحف والجواهر السلطانية، والمحافظة على الخزائن السلطانية، وتنمية أموال المتاجر السلطانية، أي الاهتمام بكل ما يتعلق بالمستأجرات السلطانية وما يقوم مقامها.

6.2.2.2 نظر البيمارستان

ويقصد به المستشفى في زماننا وهذه الوظيفة من الوظائف الديوانية، وتختص بأمر البيمارستان، وولاية هذه الوظيفة من النائب بتوقيع كريم، وكان بدمشق بيمارستانان واحد يعرف باسم البيمارستان النوري، وحاب فيها بيمارستان أيضاً أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد، ولكل منهما ناظر[2].

يقوم ناظر البيمارستان بالنظر كما يقول التوقيع:"في عموم مصالحها وخصوصها نظراً يسد خللها، ويزيح عللها، ويعمر أصولها، ويثمر محصولها، ويحفظ في أماكنها أموالها، ويقيم معالم العلوم في أرجائها، ويستنزل بها مواد الرحمة لساكنها بألسنة قرائها، و يستعيد صحة من بها من الضعفاء بإعداد الذخائر لملاطفة أسقامها ومعالجة أدوائها،ويحافظ على شروط الواقف - قدس ا روحه – في إقامة وظائفها، واعتبار مصارفها، وتقديم ما قدمه مع ملاءة تدبيره باستكمال ذلك على أكمل ما يجب، وتمييز حواصلها بما يستدعي إليها من الأصناف التي يعز وجودها ويجتذب، وضبط تلك الحواصل التي لا خزائن لها أوثق من أيدي أمنائه وثقاته، و لا مودع لها أوثق من أمانة من يتق ا حق تقاته، و ليفعل في ذلك جميعه ما عرفناه من تدبيره الجميل خيراً وخيراً، وحمدناه في كل ما يليه وردا في المصالح وصدرا."[3]

---

[1] القلقشندي،صبح الأعشى، ج11، ص320،

[2] المصدر نفسه، ج4، ص220.

[3] المصدر نفسه ج11، ص261-262.

يشير التوقيع السابق إلى مهام ناظر البيمارستان منه: المحافظة على البيمارستان، وتعميره، وتثمير محاصيله، واستعادة صحة نزلائهِ أي الاهتمام بكل ما يتعلق بأمر البيمارستان.

7.2.2.2 نظر الخزانة

وظيفة من الوظائف الديوانية وموضوعها الحديث في أمر التشاريف والخلع وما معها، ولايتها من النائب بتوقيع كريم[1]، وغالبا ما كان ناظرها من القضاة، أو من يلتحق بهم، واختير لمساعدة الناظر مجموعة من الأتباع كصاحب ديوان الخزانة،[2] ويباشر ناظر الخزانة كما يقول التوقيع: " هذه الوظيفة بعمل ونية، متسلماً ذخائر هذه الخزانة العالية، وأمورها وأموالها، وتفصيلها وإجمالها، ومحمولها وأحمالها، وحللها المرقومة، وذخائرها المعلومة، وجواهرها المنظومة، وأكياسها المختومة، وصناديقها المرقومة، ما عن علمه فيها شيء خاف، وصونه لها كاف، وأمر ا بيـ ن النون والكاف.

وليعلم أن خزائننا تصب فيها سحائب التحف والأموال والأصناف، من سائر الممالك والمدن والثغور والأطراف، ومنها يخرج بجهاز مواهبنا وإنعامنا بالأولياء الأشراف، وإنما هي لمصالح المسلمين بالجمع والائتلاف، وتقوية أهل الطاعة على أهل الاختلاف، فليضبط ما تطلعه وإن كانت الأقلام لا تستطيع ذلك لكثرة الإسعاف ولتكن التشاريف المثمنة الكاملة. حاصلة بمناطقها المجوهرة الهائلة، وطرزها الطائلة، وتعابيها الفاضلة، حتى إذا أنعمنا منها على أحد بشيء يأتي بحموله وقد حمد فاعله."[3]

يشير التوقيع السابق إلى مهمة ناظر الخزانة وهي صرف الخلع والتشاريف وتحرير ما ينفق من الأثمان والمبيعات.

8.2.2.2 نظر الجامع

---

(1) البقلي، التعريف، ص349.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص31، 191.

(3) المصدر نفسه، ج11، ص337، 338.

وظيفة من الوظائف الديوانية، وموضوعها عمارة الجامع والمحافظة عليه، وولاية هذه الوظيفة عن النائب بتوقيع كريم، وفي الغالب كانت هذه الوظيفة تضاف إلى قاضي قضاة الشافعية كما في دمشق،[1] أما في حلب فكانت وظيفة منفردة.[2]

9.2.2.2 نظر خزائن السلاح

وظيفة من الوظائف الديوانية لأرباب القلم، كانت تختص بالسلاح، ومعرفة ما يستعمل ويبتاع من أنواعه،[3] ويباشر ناظر خزائن السلاح كما يقول التوقيع:" نظر خزائن السلاح المتصورة على عادة ما تقدمه وقاعدته، وبمعلومه الشاهد به الديوان المعمور لهذه المآثر التي بثها القلم، والمفاخر التي اشتهرت كالنار على العلم، فليكشف ما بهذه الخزائن من عدة الحرب، والآلات المعدة في الهيجاء للطعن والضرب، و يشمر في تكثيرها عن ساعد اجتهاده، ويفرز مواد الإمداد بها بحسن نظره ويمن اعتماده، ويستعمل برسم جهاد الأعداء كل نصل صقل، وصمصام له في الهام صليل، وصفيحة بيضاء تبيض وبها بين أيدينا الصحيفة، و لبوس ترهب عدو ا وتضاعف تخويفه، وزآعبي يرعب، و سمهري يزهق بلسان سنانه النفوس و يذهب، وخرصان تكلم الأبطال بأسل ألسنتها في الحروب، وقواصل لها في سماء الفجـاج شروق وفي تحـلئ[4] الكفار غروب، وبدن يقد الأبدان، ولأمة لم تبار في تحصينها وتخييرها لم تدان، وفضفاضة على جنود الإسلام تفاض، وسابغة تسبغ على كل راجل من أهل الإيمان ليقضي من أهل الشرك ما هو قاض.

وليحفظ ما ينفق على هذا العدد من الضياع، ويأت بما تأتي به الضياع على أحسن الوجوه وأجمل الأوضاع، وليضبط ما يصرف عليها من الأموال، ويعتمد في نظرها ما تحمد عاقبة أمره في سائر الأحوال، ويتيمن في سائر أفعاله بميامن كماله،

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص191.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص220.

(3) المصدر نفسه،ج4 ص191.

(4) تحلئ: سواد.

ويسترشد بمراشده في أموره باليمن والرشد من خلال جماله، ويسلك بحسن نظره لهذه الخزائن ما ينتظر به أن يفُوق أنظار الأنظار ويرتقب."[1]

ويشير التوقيع السابق إلى وظيفة الناظر لخزائن السلاح ومهمته النظر والإشراف على السلاح وحفظه بأنواعه وتكثيره، والناظر كان يجمع ما يتحصل من عمل كل سنه في يوم معين ثم يحمله على رؤوس الحمالين إلى خزائن سلاح القلعة المحروسة فإذا تم ذلك يخلع عليه وعلى رفقته من المباشرين، وولاية هذه الوظيفة عن النائب بتوقيع كريم[2].

10.2.2.2 نظر بيت المال

كانت هذه الوظيفة تختص بحمول المملكة وحملها إلى بيت المال في القاهرة، والتصرف فيها تارة قبضاً وصرفاً وتارةً بالتسويغ محضراً وصرفاً[3]، ولا يتولاها إلا ذو عدالة من أهل العلم والدين وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.[4]

11.2.2.2 نظر ديوان الأسرى

تعد هذه الوظيفة من وظائف أرباب القلم الديوانية،وتقوم بافتداء أسرى المسلمين، و يشرف على إدارتها، "ناظر ديوان الأسرى ".[5]

12.2.2.2 نظر الأسواق

موضوعها التحدث في أمر ما يتحصل من سوق الرقيق والخيل ونحوهما، وصرف مرتبات مقررة لأناس في كل شهر، وكانت ولايتها عن النائب بتوقيع كريم.[1]

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص347.

[2] المصدر نفسه، ج4، ص191.

[3] البقلي، التعريف،ص343

[4] المصدر نفسه، ج4، ص31، 191.

[5] المصدر نفسه،ج4، ص191.

[1] البقلي،التعريف،ص349

13.2.2.2 نظر مراكز البريد

وهي من الوظائف الديوانيه التي موضوعها الحديث في أمر خيول البريد وكان متوليها رفيقاً لأمير آخور البريد، وكانت ولايتهاعن النائب بتوقيع كريم.[2]

14.2.2.2 نظر الحوطات

وهي وظيفة من الوظائف الديوانية التي موضوعها الحديث في استيفاء المرتجع للديار المصرية في تحصيل الأموال السلطانية ممن يموت من الأمراء ونحو ذلك، وكانت ولايتها عن النائب بتوقيع كريم.[3]

15.2.2.2 نظر المسابك

المسابك هي من الحديد والنحاس والزجاج وغير ذلك وهي من الوظائف الديوانية الصغيرة لأرباب القلم، موضوعها الحديث في أمر المسابك، وكانت ولايتها عن النائب بتوقيع كريم.[4]

3.2 وظائف أرباب الصناعات

هي الوظائف التي شغلها أصحاب الصناعات كالأطباء، والكحالين[5]، والجرائحية[6]، ومن جرى مجراهم، ومن كان يعين منهم بالأبواب السلطانية فولايته من السلطان ومن كان يعين بالممالك الشآمية فولايتها إلى أبواب السلطنة بها[1]، ومن هذه الوظائف: رئاسة الطب، ورئاسة الكحّالين، ورئاسة الجرائحية، وكانت ولايتها بتوقيع كريم عن النائب.[2]

---

[2] البقلي،التعريف،ص350

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص191.

[4] المصدر نفسه، ج4، ص192.

[5] المقصود بهم أطباء العيون. البقلي،التعريف،ص 167

[6] المقصود بهم أطباء الجراحة، وهي جمع جرائحي. البقلي، التعريف، ص83

[1] البقلي، التعريف،ص25

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص192.

وتحتاج الصناعات كما يقول التوقيع: " إلى رئيس ينعم في مصالحها نظره، ويجمل في منافعها ورده و صدره، و يعتبر أحوال أهلها بمعيار فضله، ويلزم الداخل فيها ببلوغ الحد الذي لا بد منه بين أرباب هذا الشأن وأهله، ويعرف لأكابر هذا الفن قدر ما منحهم ا من علم وعمل، ويبسط رجاء المبتدئ إذا كمل نفسه حتى لا يكون له فيها بغير كمال الإستحقاق طمع ولا أمل."

ويمضي التوقيع ليحدد مهمة هذا الرئيس الذي يباشر:" هذه الرئاسة ناظرا في مصالحها، متفقدا أحوال مباشريها، مطلعاً من شهاب فضله ما يزين أفقها زينة السماء بمصابيحها، قاسماً أحوال المستقبل بأعبائها والداخل فيها، سالكاً في ذلك سبيل من تقدمه من رؤسائها، حاكماً في أمورها بما جرت به العادة المستقرة بين أكابرها وعلمائها، مطارحاً من قدمت هجرته فيها بما يقتضي له مراجعة أصوله، ملزماً من ظهر قصوره فيها بالتدرب إلى حد لا يقنع منه دون حصوله، مجيباً في الإذن لمن أظهر الاستحقاق صدق ما ادّعاه، قابلاً في الثبوت من مشايخ هذه الصناعة من لا يشهد إلا بما علمه ولا يجد من التدرب إلا بما رآه ووعاه، متحرياً في الثبوت لدينه، آذناً بعد ذلك في التصرف إن ترقى علمه باستحقاقه إلى رتبة تعيينه، وليعط هذه الوظيفة حقها من تقديم المبرزين في علمها، وتكريم من منحه ا درجتي نقلها وفهمها، وتعليم من ليس عليه من أدواتها المعتبرة غير وسمها واسمها، ومنع من يتطرق من الطريقة إلى معالجة وهو عارٍ من ردائها، وكف يد من يتهجم على النفوس فيما غمض من أدواتها قبل تحقق دوائها".[3]

يشير التوقيع السابق إلى أهمية رئيس أرباب الصناعات الذي ينظر في مصلحة أرباب الصناعات، وتفقد أحوالهم، ومراقبة أصحابها، كما يحدد هذا التوقيع مهمة الرئيس الذي يتفقد أحوال مباشريها، ويتفقد أحوال أصحابها ومراقبتهم، ويحكم فيما بينهم، وكف من يتعدى على صناعاتهم.

4.2 وظائف زعماء أهل الذمة

هي الوظائف التي شغلها أهل الذمة من يهود أو نصارى، وهي:

---

[3] المصدر نفسه، ج11، ص379-380.

1.4.2 بطريكة النصارى:

وهي وظيفة من وظائف النصارى، ويقوم صاحبها في أمور التحليل والتحريم، ويحكم بين أهل الذمة النصارى، وينظر في أمر الكنائس والأديرة والرهبان،[1]كما يقول التوقيع: " يباشر بطريكة النصارى على عادة ما تقدمه من البطاركة السالفة بهذه الدولة، فليحط أمورها الجزئية والكلية، والظاهرة والخفية، وليأخذهم بما يلزمهم من قوانين شرعتهم، وكل ما يريدون من حسن سمعتهم، وأما الديرة والبيع والكنائس التي للملكية فمرجعه إلى صونه، وأمرها مردود إلى جميل إعانته وعونه، والأساقفة والرهبان فهم سواد عين معتقده، وخلاصة منتقده، فلا يخلهم من تبجيل، وحسن تأهيل، وتتقدم من بالثغور من جماعتك بأن لا يدخل أحد منهم في أمر موبق، ولا في مشكل موثق، ولا يميلون كل الميل إلى غريب من جنسهم، وليكن الحذر لغدهم من يومهم وليومهم من أمسهم ولا يشاكلون رسولاً برد، ولا قاصداً يفد، وطريق السلامة أولى ما سلك، ومن ترك الدخول فيما لا يفيه ترك ".[2]

وكان لنصارى بلاد الشآم بطركان أحدهما لليعاقبة والآخر للملكانية، وولايتهما إما من النائب أو من السلطان بتوقيع كريم من الأبواب الشريفة[3].

ويساعد البطرك "الأسقف"[1]، الذي ينوب عنه في مهماته، والمطران الذي يفصل النزاع بين النصارى، " والقسيس "[2] الذي يقرأ الأناجيل والمزامير، ويقيم الصلوات في الكنيسة[3].

2.4.2 رئيس اليهود

هي وظيفة من وظائف اليهود، يقوم رئيسها في أمور التحليل والتحريم، والحكم بين اليهود[4]، وكما يقول التوقيع: " يفوض إليه رئاسة اليهود على اختلافهم:

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص426،424؛ غوانمة، التاريخ الحضاري، ص144.

(2) المصدر نفسه، ج11، ص393.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص194.

(1) الأسقف: هونائب البطرك، وهو بمنزلة المفتي.

(2) القسيس: هو القارئ الذي يقرأ على النصارى الانجيل المزامير وغيرها.

(3) بطريرك: هو رئيس رؤساء الأساقفة.الشذر،، ألفاظ الحضارة العباسية، ص210.

من الربانيين، والقرائين، والسامرة بالديار المصرية حماها ا وكلاها، فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى، وغروسهم بالتدبر لا تذوي، ومقاصدهم لا يمازجها شك ولا شكوى، ولينزل عليهم مِنّا مَنّاً يسليهم صنعاً حتى لا يفارقوا المن والسلوى، وليتق ا فيما يذره ويأتيه، ويحسن في اجتلاب القلوب واختلائها تأتيه، وإياه والتيه حتى لا يقال كأنه بعد لم يخرج من التيه.

وجماعة الربانيين فهم الشعب الأكبر، والحزب الأكثر؛ فعاملهم بالرفق الأجدى والسر الأجدر، ولكونك منهم لا تمل معهم فيما به من النفس الأمارة تؤمر.

وجماعة القرابين فهم المعروفون في هذه الملّة، بملازمة الأدلة، والاحتراز في أمر الأهلّة، فانصب لأمرهم من لم يتوله حين يتولى، ومن كان منهم له معتقد فلا يخرج عن ذلك ولا يحرج، ولا يلجم منهم بلجام من نار إنكار في ليلة سبته عليه لا يسرج.

والسامرة فهم الشعب الذي آذن التنظيف أهله بحروبه، ولم يك أحدهم لمطعم لكم ولا مشرب بأكوله ولا شروبه، فمن قدرت على رده بدليل من مذهبك في شروق كل بحث وغروبه، فاردده من منهج تحيده عن ذلك وهروبه، وإلا فقل له: يا سامري بصرت بما لم تبصروا به، ولتكن تستكمل فيهم بالبت، وارفق بهم" فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، فإياك أن تكون ذلك المنبت، ومرهم بملازمة قوانينهم كي لا يعدو أحد منهم في السبت، واجعل أمور عقودهم مستتبة، وأحسن التحري والتحرير لهم في إتقان كل كتبه، ولا تختر إلا الأعيان من حزّان[1] وديّان، ومن كان له من داود عليه السلام لحمة نسب، وله به حرمة نسب، فارع له حقه، واصحبه من الرفق أكرم رفقة، والجزية لدمائكم وأولادكم عصمة، وعلى دفاعها لا دافعها وصمة، ولأجلها ورد: " من آذى ذمياً كنت خصمه "، وهي آلم من السيف اجاره، وهي أجرة سكن دار الإسلام كما هي لاستحقاق المنفعة بها إيجاره، فأدّوها، وبها نفوسكم فأدّوها"[2].

---

[4] غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص125.

[1]الحزّان: من وظائف اليهود، وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر ويعظهم. البقلي، التعريف، ص105

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص388،387.

يشير التوقيع السابق إلى مهمة رئيس اليهود وهي البت في أمور اليهود، والحكم بينهم، واختيار مساعديه. أما مركز رؤساء الربانيين والقرابين فهو دمشق، والسامرة في نابلس[3]، وكان ليهود بلاد الشآم ثلاث فرق هي : الربانيون، والقرابون والسامرة، ويساعد رئيس اليهود مجموعة من الموظفين: كالحزّان الذي يشرف على صلاة اليهود، ويشترط فيه المعرفة بأحكام التلمود، ويليه " الشليحصبور "[4]: وهو الذي يؤم اليهود في الصلاة بأديرتهم، و" الحبر " الذي يفصل النزاعات بين اليهود.

---

(3) الشيلحصبور: هو الإمام الذي يصلي باليهود. البقلي، التعريف،ص204

(4) قاسم، أهل الذمة في مصر، ص123-127.

الفصل الثالث

من مظاهر الحياة في المجتمع المملوكي

يتمثل النشاط الاجتماعي في مجتمع ما بالمظاهر الحياتية السائدة فيه، فالمجتمع الشآمي كأي من المجتمعات الأخرى ظهرت فية هذه المظاهر، وتبدو المظاهر الحياتية أوضح ما تكون في العادات والتقاليد، والأزياء، ووسائل التسلية والترفيه، والأعياد، ومظاهر الفساد.

1.3 التقاليد والعادات

لكل قوم تقاليد وعادات، يتبعونها دون وعي، ويسيرون عليها سيراً غير شعوري، مدفوعين بدافع التقليد والاعتياد؛ وقد يشعر الإنسان بعقم ما يجري عليه، ولكنه لا يجد لنفسه مفرا من اتباع ما تعود عليه، وكان لأهل العصر المملوكي تقاليد وعادات، وما زال منها بقية باقية حتى اليوم.

وتظهر التقاليد والعادات في حفلات الزواج التي يولع فيها، ويغلب عليها الظهور والفخر، ويشتد غناؤهم، وتعلو أصواتهم ويدقون الدفوف، ويرقصون، وتزغرد النساء(1)؛ ويصرفون آلاف الدنانير على تجهيز بيوتهم، فقد بلغت قيمة جهاز أحمد بن بكتمر الساقي(2) ستين ألف مثقال ذهباً خلا ما قدمه العريس من مبالغ كصداق لعروسته[3]، ومن العادات التي كانت شائعة في عصر المماليك الأول أن يحمل جهاز العروس وتزفه المغاني حتى يصل إلى المكان الذي يتم فيه عقد القران[4]؛ فما أن يتم عقد القران إلا ويتهافت الجميع لتقديم الهدايا والتحف الفاخرة إلى العروسين أو إلى والديهما[5]، ويتم عقد الزواج في المسجد عادةً، حيث كان يعلن على المئذنة

---

[1] سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليـك وإنتاجه العلمي والأدبي، دار الماضي، القاهـرة ، ط1، 1965م، ج2، ص 338.

[2] بكتمر بن عبد ا الركن الساقي الناصري: كان من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكيرثم انتقل إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون فحظي عنده، وجعله ساقياً، توفي سنة 733هـ/1332م، أثناء عودته من الحجاز هدد السلطان. أبو محاسن، المنهل الصافي، ج3، ص390-391.

[3] ابن إياس، بدائع الزهور، ج4، ص406,407.

[4] المقريزي، السلوك ، ج1، ص 107.

[5] أحمد ،المجتمع الاسلامي، ص209.

اسم الزوج واسم والد العروس اشهاراً للزواج الذي تنص عليه الشريعة الإسلامية، وكان في الجامع الأموي بدمشق مئذنة تسمى مئذنة العروس، ترجع للقرن السابع هجري / الثالث عشر الميلادي.

وبعد مرور ثلاثة أيام من عقد القران ينقل جهاز العروس الذي أعدته إلى بيت الزوج في موكب حافل[1]، وفي اليوم الذي يتم فيه العرس كانت تقام وليمة كبيرة [2]، يذبح فيها أنواع الأغنام والأبقار والخيول والدجاج والإوز، وبعد الانتهاء من الطعام توزع الحلوى والمرطبات الساخنة والباردة على الحضور.[3].

وتظهر عادات الزواج في الدولة المملوكية من خلال بابة طيف الخيال "لابن دانيال"، وكان للخاطبة دور كبير في إتمام الزواج إذ كانت المرأة محجبة خلف نقابها أو في بيتها ولا مناص أمام طالبي الزواج من اللجوء إلى الخاطبة فهذا الأمير وصال عزم على الزواج[4] يقول : فاطلب لي أم رشيد الخاطبة، وإن كانت كالتي تخرج بالليل حاطبة، لأنها تعرف كل حرة وعاهرة وكل مليحة في مصر والقاهرة، ولأنهن يخرجن من الحمامات متنكرات في ملاحف الخادمات، وتعيرهن الثياب والحلي بلا أجرة، أقود من مقود، وأجمع من مسرد، أقود من الأوز للقرط بالفسطاط وأجمع للرأسين من مسمار مقراض من الخياط[5].

وتتحدث أم رشيد الخاطبة عما أعدته لحفل العرس، فتقول: حسبتم بالسعادة، يا ولدي قد وقع الفأس في الرأس، فاعمل عمل الناس أما أنا فقد درت بالمؤذنات وصرت في الشوارع مثل الصانعة يا بنات، وأطلقت في الضامنة ليلة الجمعة، فأكثر للجلا ولو عشرين شمعة، وقد اكتريت "زهر البستان"، والمغنية "الورد الطري الريان"، والجلا في قاعة المهتار بالبرقية، فاحمل في كمك للنقوط من الدراهم والأنصاف وإلا صفعونا بالدلاكش والأخفاف[6].

---

[1] أحمد،المجتمع الاسلامي، 250،.251

[2] المقريزي، السلوك، ج4، ص132.

[3] أحمد،المجتمع الاسلامي ، ص250.

[4] أمين، المجتمع المصري، ص253.

[5] ابن دانيال، شمس الدين أبوعبدا محمد(ت711هـ/1311م)، خيال الظل، تحقيق: إبراهيم حمادة، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1961م، ص161-162.

[6] المصدر نفسه، ص174.

ويتحدث النص السابق عن إعدادات العرس فالفاتحة التي أعدت لهذه المناسبة وهو ضيفنا اليوم في استئجار قاعة أو غيرها، ونرى المغنيتين " زهر البستان " و" الورد الطري الريان، واكتراء أم رشيد لهما من الضامنة وهو ما يزال قائماً الى اليوم من استئجار مغنيات الأفراح، ثم الشموع، والنقوط، والماشطة، وكل أولئك ما زال نراه في أفراحنا[1].

ثم ينتقل "ابن دانيال" فيصف الزفة قائلا: " فيدخل ويخرج (أي العريس) في زفة، وقدامه المغاني والشمع منصفة، ومن خلفه البوقات والطبول، وهو راكب على فرس من أحسن الخيول، ثم يدخل في أدب وناموس وتبرز للجلا المواشط بالعروس وتحلى عليه بالخلعة والشربوش، وتحضر مستورة الوجه بمنديل مذهب منقوش[2].

ووصف الزفة يظهر من النص السابق فيدخل " العريس " ويخرج في زفة، وتصطف أمامه المغنيات والشموع، وخلفه الأبواق والطبول، ويظهر وهو راكب أحسن الخيول، ثم يترجل بهدوء، وتبرز " العروس " مستورة الوجه بمنديل مذهب منقوش[3].

ومن عادة المجتمع الشامي الاحتفال بولادة الطفل[4] بأساليب مختلفة، تبدأ بأن تلمسه القابلة بعد ولادته مباشرة فإن كان غلاماً صلت على سيدنا محمد، صلى ا عليه وسلم، وإن كانت بنتاً ترضت على فاطمة الزهراء، رضي ا عنها، ثم يقدم المولود إلى أحد أقربائه من المشهود لهم بالصلاح فيؤذن بأذنه الأذان الشرعي ثم يسمى من قبل وليه[5]، هذا عدا مظاهر التكريم والعناية لأم المولود[6].

وفي اليوم السابع من ولادة الطفل يقيم أهله وليمة كبيرة، ويدعو إليها المعارف والأصدقاء والأقارب، وقد يحضرون القيان للغناء، وترقص النساء،

---

(1) أمين، المجتمع المصري، ص254.

(2) ابن دانيال، خيال الظل، ص180.

(3) أمين، المجتمع المصري ، ص254.

(4) المقريزي ، السلوك ،جـ4 ، ص445،444 ؛ عاشور ، المجتمع المصري ،ص 123.

(5) أحمد ،المجتمع الاسلامي، ص253.

(6) عاشور، المجتمع المصري، ص 123.

ويحضر كل مدعو هدية بهذه المناسبة[1].

واعتاد أهل بلاد الشام ختان أولادهم، فيشهر الفرح لهذا المناسبة يدعى إليها الأحباب والأصحاب[2]. وتقام وليمة كبيرة بكل ما لذ وطاب،ثم يزين الغلام بالحلي ويركب على دابة ويركب وراءه رديف يقال له العريف، و يطاف به في الشوارع يتقدمه كبير مشايخ الصوفية راكبا على دابة مجللا رأسه بطيلسان وفي يده عصا، يشير بها إلى جماعته وهم سائرون أمامه، ويحملون أعلام طريقتهم، ويضربون دفوفهم و طبولهم، وبعد الانتهاء من الطواف، يعودون إلى منزل الغلام، وتتلى قصة المولد النبوي، وفي ختامها يختن الطفل، ولا بد في هذه المناسبة من تقديم الهدايا لأهل الغلام من قبل الحضور[3].

وتظهر عادات أهل بلاد الشام في الأتراح، فعند الوفاة ينادي أحد ما من المسجد أو مؤذن المسجد من فوق مئذنته بما يشعر الناس أن هناك من مات، ثم يأخذون في إعداد الميت، فيقومون بغسله، ثم تكفينه ثم يسيرون به، ويتقدمهم شخص يدعى "المدير" مثنياًعلى الفقيد في وسط جمع، ولدى بروز الجنازة من منزل أسرته، تتبارى النساء في إخراج صيحة مزعجة وهي صيحة الوداع، وتسير النساء في صحبة الجنازة حاسرات الرأس، حافيات الأقدام، ويقدم أهل الفقيد الخبز ونحوه الذي يسعى به الساعون أمام الجنازة لتفريقه على العامة وهو المسمى " الكفارة " فإذا سارت الجنازة في الطرقات ترى على جوانبها أبسطة وحصر يجلس عليها القراء يقرأون القران، ثم يصلى على الميت في المسجد حيث يكون في انتظاره بعض الناس جلوساً، ثم يسعى به إلى المقبرة ويلحد، فيتقدم الناس لعزاء أهل الفقيد وينصرفون، وهناك في دار الفقيد يقام العزاء ثلاث ليال يقرأ فيها القران[4].

ومن عادات أهل بلاد الشام ومصر الاحتفال يوم وصول نائب جديد إلى نيابته، فيؤمر السكان عند اقتراب النائب الجديد في المدينة بإقامة الزينة، ثم يخرج لاستقباله نائب الضيعة والقضاة والجند والعشيره والزعر، وفي مكان الاستقبال يقوم النائب

---

(1) أحمد،المجتمع الإسلامي، ص253.

(2) عاشور، المجتمع المصري، ص 124- 125.

(3) أحمد،المجتمع الإسلامي، ص252.

(4) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج7، ص328،329، ج2، ص341،342؛ عاشور، المجتمع المصري، ص 108،109.

بارتداء التشريف السلطاني، ثم يدخل بموكبه الحافل تجاه القلعة حيث يسير حولها سبع مرات، وفي المرة الأخيرة يقف أمام باب السر ويصلي ركعتين بعد خلع سيفه[1]، وقد تقتصر مراسم استقبال النائب الجديد على مجموعة قليلة من الناس دون أي نوع من الاحتفال والتكلف[2].

2.3 الأزيـاء:

كانت الأزياء في عصر الدولة المملوكية متنوعية زاهية في ألوانها وأشكالها، وتخصص كل عنصر من عناصر المجتمع بزي معين، فتنوع الأزياء في ذلك العصر يعكس لنا تنوع عناصر المجتمع، واهتم المماليك الأمراء والأجناد بأزيائهم، وهو أساساً يتألف على الجسد من أثواب " أقبية"[3]، تبلغ أربعة: الأول قطني، والثاني هندي، والثالث حريري، والرابع سميك، مفصل بعضها بزي مغولي " أقبية تترية"، أو هندي " تكلاوات"[4]، والأخير منها بزي إسلامي الذي كان مفتوحاً وله أكمام طويلة ولونه أبيض في الصيف، وملون في الشتاء، وكانوا يشدون الوسط بالبنود[5] " الحزام "، ويعلق عليه السيف من جهة اليسار، والكزلك[6]
من جهة اليمين[7]، أما على الرأس فتوضع طاقية " كلوتة "[8] ويلف حول الطاقية عمامة[9]، ويبلغ ارتفاع الطاقية سدس الذراع، وتكون قمتها مدورة ومسطحة ثم زيد ارتفاعها فأصبحت ثلثي الذراع [10].

---

(1) ابن طولون، إعلام الورى، ص74-75، 173- 174.

(2) المصدر نفسه، ص150.

(3) أقبية: جمع قباء ثوب طويل يغلق في مقدمتة بأزرار مفتوح حول الرقبة. القلقشندي، صبحي الأعشى، ج4، ص40.

(4) تكلاوات: نوع من الملابس كان يلبسه الأمراء. عاشور، المجتمع المصري، ص 212.

(5) البنود: الحزام يوضع حول الوسط. عاشور، المجتمع المصري، ص212.

(6) الكزلك:الخنجر او السكين. البقلي، التعريف، ص87.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص39-40؛ ماجد، نظم دولة، ج2، ص74.

(8) الكلوتات: غطاء الرأس على شكل طاقية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة والكلوته فارسية معناها الطاقية الصغيرة. ماير، الملابس المملوكية،53.

(9) حسن، علي إبراهيم،تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1967، ص471؛ ماجد، نظم دولة، ج2، ص74-75.

(10) ماير، الملابس المملوكية، ص 57-58.

ومن الأزياء المملوكية الشربوش[1] وهو لباس مثلث الشكل يوضع على الرأس دون عمامة. وكان المملوك يلبسه عندما يصل إلى رتبة فارس [2]. وطوال فترة الحكم المملوكي كانت تطرأ بعض التغييرات على أنواع الملابس؛ ففي عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، أصدر أوامره بلبس العمائم الصغيرة[3]؛ كما قام الأمير سلار[4] باستحداث القباء السلاري الذي يكون طوله وأكمامه أقصر من القباء التحتاني، ويصنع من خامات متنوعة، ويزدان باللؤلؤة والجواهر[5]. ولم يختلف الأمراء عن الجنود بأزياء البدن إلا بلبس أقبية قصيرة متسعة الأكمام[6]؛ بالإضافة إلى لبس العباءة وهي رداء فوقاني[7]، ويشدون أوساطهم "بالمنطقة" التي تكون مزينة بالذهب المرصع بالفصوص، أو غير مزينة[8].

ومن أزياء الدولة المملوكية أزياء التشاريف، وهي ملابس ينعم بها السلطان، وهي درجات أعلاها مرئية ما يختفي بالأمراء المقدمين من النواب، والتشاريف الشامية التي هي من صنع الشام فهي تتألف من ملابس ملونة مموجة بقصب مذهب، وتحتها قباء طرز[9] مزركش من فراء السنجاب [10] أو القندس، وتحته قباء من الطرح السكندري المفرج، وكلوتة زركش بكلاليب وشاش، وحياصة ذهب قد تكون بيكارية وقد لا تكون، وهذه لصغار أفراد المئين ومن يلحق بهم، كذلك أصحاب الوظائف كالجوكندار والولاة ومن يجري مجراهم[11].

---

[1] الشربوش: قلنصوة طويلة معربة عن سربوش أي غطاء الرأس. شير، الالفاظ الفارسية، ص19.

[2] طرخان، النظم الاقطاعية، ص313؛ ماير، الملابس المملوكية، ص51؛ ماجد نظم دولة، ص79.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص40.

[4] سلار: سلار بن عبدا المنصوري نائب السلطنة بالدريار المصرية، رشح للسلطنة لما توجة الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك، فلم يقبل، وسلطن بيبرس، وقبض عليه الناصر محمد بن قلاورون بعد رجوعه إلى السلطنة، وقتله بالسجن سنه 710هـ/1310.

[5] ماجد، نظم دولة، ج2، ص75.

[6] طرخان، النظم الاقطاعية، ص33؛ ماير، الملابس المملوكية، ص43-44.

[7] ماير، الملابس المملوكية، ص40.

[8] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص40.

[9] طرز: علم يوضع على الثوب، يحتوي على شعار السلطان أو الأمير. السبكي، معيد النعم،ص49

[10] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص52-53

وتختلف أزياء أرباب القلم باختلاف مراتبهم، فالقضاة والعلماء يلبسون العمائم من الشاشات الكبار، ومنهم من يرسل ذؤابة تصل قربوس سرجه إذا ركب.[1] ومنهم من يجعل بدل الذؤابة الطيلسان، ويلبسون فوق ثيابهم دلقا[2]، وهذا يكون أكمامه طويلة متناسقة، مفتوحة فوق الكتفين بغير تفريج سابلا على القدمين.

أما زي قضاة القضاء الشافعي، فكان الطرحة التي تستر العمامة، وتنسدل على الظهر، وبقية القضاة تكون عمامته ألطف، يلبسون عوض الدلق فرجية مفرجة من قدامه من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار، وفي فصل الشتاء كانوا يلبسون اللباس الفوقاني من الصوف الأبيض الماطي، أما الملابس الملونة فلا يلبسونها إلا في بيوتهم، وليس فيهم من يلبس الحرير[3].

ومن أزياء البدن للقضاة الطرحة، التي تستر العمامة، وتنسدل على الظهر[4]، وهي زي مشترك مع زي الخليفة وأرباب الوظائف الديوانية، ويعد الطيلسان أكثر الملابس شبهاً بالطرحة وهو على نوعين الأول به قطعة مقطوعة من الوسط، والاخر كان يصنع من قماش مقور وأطلق عليه الطرحة، حيث يلبس فوق العمامة، وكان شكله مناسباً في البداية من ناحية الطول والعرض، ولكن ظهرت أنواع منه فيما بعد كانت تغطي العمامة والكتف[5].

أما زي مشايخ الصوفية فكان الدلق وهو لباس متسع من الأكمام، وإن كانت غير طويلة، وغير سابلة على القدمين، كما يرخون ذؤابة صغيرة لطيفة على الأذن اليسرى، لا تكاد تصل الكتف.[6]

وتتشابه أزياء أرباب الوظائف الديوانية مع زي الوزير الذي يلبس ما عرف باسم "جبة" " أو " فرجية " التي تكون مفرجة من ورائها[7]، أما على الرأس فيلبس

---

[1] المصدر نفسه، ج4 ص42.

[2] دلق: رداء كالعباءة كان يرتديه الفقهاء والمتصوفة

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص42؛ ماجد، نظم دولة، ج1، ص84.

[4] ماجد، نظم دولة، ج2، ص84؛ ماير، الملابس المملوكية، ص93.

[5] ماير، الملابس المملوكية، ص94.

[6] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص43؛ ماجد، نظم دولة، ج1، ص84-85.

[7] القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص43؛ ماجد، نظم دولة، ج1، ص84-85.

الوزير نوعاً خاصاً من العمامة المسماة " بقيار "، وهي مخططة مثل عمامة الكتاب، وأن بدأوا في هجر الذؤابة المرخاة على الظهر، التي أصبحت تميز رجال القضاة وحدهم[1].

وقد كان رجال الدواوين من أهل الذمة، يلبسون العمائم الفخمة مثل المسلمين تزيد في طولها عشرة أذرع، الزرقاء للنصارى، والصفراء لليهود، ويرتدون الحياصة حول الوسط[2].

أما أزياء النساء في دولة المماليك، فكن يلبسن ما يسمى " البهطلة" وهو قميص له أكمام واسعة، تبلغ ثلاثة أذرع، وله ذيل طويل ينسدل على الأرض[3]. ومن الملابس للمرأة "البغالطيق "، وهي الأخرى قمصان قصـيرة الكم أو بغير كم، وإن كان يلبـس فوقه ثوباً اخر [4]. وكانت المرأة تلف جسمها بملاءة متسعة من الحرير يغطى كل الجسم وتسمى "الإزار"، ولونه للنـساء المسلمات أبيض بينما كان لونه لنساء النصارى أزرق، وأما للنساء
اليهوديات فلونه أصفر[5].

ومن ملابس النساء " السراويل"، ومن المعروف أن النساء يمكثن في بيوتهن بدون سراويل، وكانت بعض مدن الشام مثل نابلس يلبسن كساء واحدا بدون سراويل[6]، أما لباس الرأس فهو" الطواقي"، التي بالغوا فيها، عملوها من الذهب أو الحرير، " والعصائب " التي كانت تلف كالعمامة حول جزء من الأزرار الذي يغطي الشعر، وكانت العصابة أو المناديل المزركشة مزينة بزخارف جميلة ومطرزة ومحلاة بالأحجار الكريمة[7].

---

[1] ماجد، نظم دولة، ج1، ص80-81.

[2] ماجد، نظم دولة، ج1، ص81-85 ؛ ماير الملابس المملوكية، ص60-116.

[3] ماجد، نظم دولة، ج1، ص81-85.

[4] المصدر نفسه، ج1، ص85.

[5] ماير الملابس المملوكية، ص16.

[6] ماجد، نظم دولة، ج1، ص85-86؛ السيد تاريخ عرب الشام ص194.

[7] ماجد، نظم دولة، ج1، ص86.

3.3 وسائل التسلية والترفيه.

تعددت وسائل التسلية والترفيه عن النفس في الدولة المملوكية، وانتشرت جملة من الألعاب للتسلية [1]، ومن هذه الألعاب ألعاب الرماحة، وهي ألعاب عسكرية تنم عن فروسية اشتهرت بين المماليك، يقوم بها فريق الرماحة بملابسهم الحمراء أثناء عرض المحمل [2].

ومن وسائل التسلية والترفية رياضية الصيد[3]، التي حازت على اهتمام المماليك أمثال الظاهر بيرس، والناصر محمد بن قلاوون[4]، والأمير تنكر، وكانت لهذه الرياضة مناطق محددة[5] ومواسم موقوتة، فحين يحل الموعد يخرج السلطان وكبار أمرائه في موكب يبهر العيون، ومعهم عدة الصيد، وفي المكان المقصود يضربون خيامهم، ويقضون الوقت قد يطول وقد يقصر، يصدون الطير، ويقنصون الوحش، حتى إذا انتهت رحلة الصيد، عاد الموكب محملا بألوان الطير وصنوف الوحش[6].

وفي رسالة للقاضي البارنباري[7] في وصف رحلة صيد قام بها السلطان محمد بن قلاوون، يقول فيها بعد أن حمد ا ، سبحانه وتعالى، وصلى على نبيه محمد، عليه السلام،"وبعد، فإن في ابتغاء النصر ملاذاً تدركها كل ذات شرفت،

---

(1) عاشور المجتمع المصري، ص102؛ سليم، عصر سلاطين المماليك ج7، ص335.

(2) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج7، ص335.

(3) ضيف شوقي أدب الممالك والدويلات، ص526؛ أمين المجتمع المصري، ص315.

(4) محمد بن قلاورن: محمد بن السلطان الملك النمصور قلاورن الصالحي الألفي، ولد سنه 684هـ/1250م، وجلس على تخت الملك بعد مقتل أخيه الملك الأشرف خليل سنة 693هـ/1293م، واستمر في الملك إلى أن خلع بالأمـير كتبـغا سنة694هـ/1294م، وتوجه إلى الكرك وأقام به إلى أن أعيد إلى السلطة بعد قتل المنصور سنة 698هـ/1298م، ودام في الملك إلى أن تغلب عليه سلار وبيبرس فأظهر التوجه إلى الحجاز، وتوجه إلى الكرك وترك ملكـه سنة 708هـ/1308م، واستمر فيها إلى أن توجه إلى مصر طالباً ملكه وقتل بيبرس وسلار، واستمر في الملك إلى أن توفي سنه 740هـ/1340م. أبو المحاسن، الدليل الشافي، ج3، 674.

(5) اليوسفي، نزهة الناظر، ص268؛ غوانمة التاريخ الحضاري، ص149.

(6) أمين، المجتمع المصري، ص315

(7) البارنباري نسبه إلى بارنبار قرية بمصر، ولعله محمد بن عبدالوهاب بن محمد البارنباري الشافعي المتوفي سنة 832هـ،1428م، وقد أناف على التسعين. الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص268.

وتملكها السجايا التي تعارضت بالفخار وائتلاف، وتناولها النفوس التي قالت إلى العز، وإلى تلقائه ضرمت، ونشؤها من حالتين: إما في موقف عز عندما تلمع بروق الصفاح، وتشيب من هول الحرب ورؤوس الرماح، وتسرح جوارح النبال لتحل في الجوارح، وتصيد في الارواح، وإما في موطن سلم عندما تبسط النفوس إلى امتطاء صهوات الجياد في الأمن والدعة، وتنشرح الصدور إلى معاطاة الصيود والمسرات مجتمعه، وتطلق البزاة فتصيد، وتتصرف بأمر الملوك الصيد، وترسل الحوامي المملكة، وتلقي على ما سنح من الوحش فلا ترى إلا مدركه"(1).

فالبارنباري يقرن بين الصيد والحرب، ويرى أن كليهما مبعثه شرف النفس، ونبل السجايا، ويذكر بعض أدوات الصيد "كالبزاة" و"الحوامي" .

وهذه الرسالة توحي بما كان عليه الأمر في سائر رحلات الصيد، فهي تعطينا صورة كاملة لرحلة صيد محمد بن قلاوون، وإلى موكبه، وإلى خروج الدهليز السلطاني حيث يمد، وتحيط به خيام الأمراء[2]:"فيرسم- خلد ا سلطانه- في الوقت الذى يرسم به من مشتى كل عام بإخراج الدهليز المنصور فينصب في بر الجيزة بفسح الهرم، في ساعة مباركة، أهخذة في إقبال الجود والكرم، فتمد بالتأكيد أطنابه، وترفع على عمد النصر قبابه، ويحاط بحراسة الملائكة الكرام رحابه، وتقترب خيام الأمراء قوله وطاقا، وتحف به مثل النجوم بالبدر إشراقا"[3].

وتبـع الرسالـة تصوير لـون من الـوان الصيد ألا وهـو صيد الطير وأدواتـة الصقـور، فتصف الرسالـة هاتيـن الاداتيـن، فهـذا صقر متوقـد[4] العنيـن، كريم العنصر مدرب، يحملونـه علـى الأكـف إيـذانا بانطلاقـه، وهـذا باز[5] أشهب[6] مفضض الصـدر، ذو منسـر[7] حاد أقنـى[8]، ومخاب كأنـه نقل

---

(1) القلقشندى صبح الأعشى،ج14، ص165-166.

(2) أمين، المجتمع المصري، ص316؛ الحوامي: كلاب الصيد.

(3) القلقشندى صبح الأعشى، ج14، ص166.

(4) مشتعل

(5) النسر

(6) الذي يغلب بياضه على سواده

(7) منقار

(8) ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وضيق منخريه

السيف[1] "واعدت للصيد بزاته ومنقوره، في كل متوحد، اللحظا في الشهامة، محمول على لراحات في فرط الكرامة، يتوسم فيه النجاح، قبل خفض الجناح، ويخرج في جو السماء ولا جرح ولاجناح، وبازها الاشهب، يجئ بالظفر ويذهب،بصدر مفضض، وناظر مذهب، له منسر أقنى، طالما أغنى كأنما هو شبا السنان، وقد حباه الكماة طعناً:

وصارم في يديك مصلت إن كان للسيف في الوغى روح

متقد اللحظ من شهامته فالجو من نـاظريه مجـروح"[2]

وتمضي الرسالة في تصوير عملية الصيد في غبش السحر، والطيور في غفلة عما يراد بها، لاهية في التقاط الحب، بينما السلطان يراقبها عن قرب، ويهيء الأمر للأمراء الذين التفوا حول الطير بخفق الطبول، فتذعر الطيور، وتحلق، وينطلق النسر في إثرها، ينشب فيها مخالبه، ويسد عليها سبل النجاة، يقول البارنباري[3]: "ويخرج(أي النسر) في، وعليه سواد، فيها به الصادح في الجو والباغم في الواد، ويأمر – خلد ا سلطانه – أمراءه فيضربون على الطير حلقة وهي لاهية في التقاط فيها، غافلة عما يراد بها، فيذعرونها بخفق الطبول وضربها، ومولانا السلطان- خلد ا ملكه- لنافرها مترقب، ولطائرها بالجارح معقب، فما يدنو الكركي مقرورا حتى يؤوب مقهورا، ساقطا من سمائه إلى أرضه، ومن شعبـة إلـى قبضة، فسبحان من خلق كل جنس وقهر مخالبه، وسد عليه سبله في جو السماء ومذاهبه"[4]

وينتقل البارنباري إلى صيد الوحش، فيصف ما أعد لذلك من قبل وفهود وحوامي: هذا فرسى أحمر كأنه صبغ بالدم، كريم العرق ينحدر كالصخر[5]:"ومن أحمر:كأنما صغ بدماء الأعداء أديمه، وكأنما وهوشقيق الشقيق وحشيمه، كرمت غرره وحجوله،

---

[1] أمين، المجتمع المصري، ص317

[2] القلقشتدي، صبح الأعشى، ج14، ص167

[3] أمين، المجتمع المصري، ص317

[4] القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص168.

[5] أمين، المجتمع المصري، ص318.

وحسنت أعراقه وذيوله، مكر مفر كجلود صخر حطته من على سيوله، حكي لونه محمر الرحيق، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق"[1].

وهذا فرس أدهم غرته بيضاء، وكأنه صبح في دجاه الحالك، أو كأنه كوكب تخاف من الليل[2]:"ومن أدهم: مدرك بالليل، منصب كالسيل، كريم الناحية، جواب قاصيه، كأن غرته صبح منفس في الدجى الحالك، وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب"[3].

وينطلق الخيل، وعلى أثرها الفهود، سوداء كأن الليل تفرق في أهبها، حاده الناب والظفر، قوية الوثبات شديدة البطش بالوحوش[4]:"وتليها الفهود الحسن منظرها، الجميل ظفرها، الكاسب نابها وظفرها وادركت في هضابها المرتفعة، وجوهها كوجوه الليوث المخادرة، ووبثاتها على الطريدة وثبات الفئة المؤمنة على الفئة الكافرة، مقلصة الخواصر، عزماتها على الوحش حواصر ما أطلقت على صيد إلا أخذتها جميعاً"[5].

ثم تليها الحوامي المدربة، مناصرة الخواصر، واسعة الوثبات، حاده الأنياب، مفتولة السواعد[6]، "ثم الحوامي المعلمة، والضواري التي أضحت بالنجع متوسمة، ما منها إلا طاوي الخاصرة، وثباته طائلة غير قاهرة، بنيوب كالأسنة، وساعدين مفتولين تسبق بهما ذوات الأعنة"[7].

ثم تبدا المعركة، فتجول الخيل، وتصول الحوامي، وتقنص الفهود، بينما الوحوش تضطرب ذعرا، وقد قيل بينها وبين الخلاص[8]، وعندما تلتقي حلقة العساكر، يلحقها- خلد ا سلطانه- ومعه الجوارح العائدة، والأسهم النافذة، والفهود

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى،ج14، ص169.

[2] أمين، المجتمع المصري، ص318.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى،ج14، ص169.

[4] أمين، المجتمع المصري، ص319.

[5] القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص170.

[6] أمين، المجتمع المصري، ص319.

[7] القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص170.

[8] أمين، المجتمع المصري، ص319.

الآخذة، فتموج الوحش ذعرا، وترى مسالكها قد سدت عليها سهلا ووعرا، وضرب دون نجاتها بسور من الجياد والفرسان، وحيل بينها وبين خلاصها بنبال وخرصان"[(1)]

مما سبق يمكن القول بأن هذه الرسالة تقدم صورة حية مفصلة لرحلات الصيد، وتمثل لنا جانباً من جوانب تسلية المماليك وترفيههم في الدولة المملوكية، وتعطينا فكرة كاملة عن ألوان الصيد، وعدة كل لون والته، فهذه الرياضة الدموية هي رياضة مفضلة لدى المماليك.

والرمي بالبندق رياضة أخرى من رياضات التسلية والترفيه في الدولة المملوكة والبندق عبارة عن كرة تصنع من الطين أو الحجر أو الرصاص، وتقذف بها الطيور[(2)]، ويستخدم البندق في رحلات الصيد عوضًا عن البزاة والصقور والخيل والفهود، وتتميز هذه الرمله بالسرعة والقصر، ويخرج إليه قلة من الأمراء، وقد لا يطول بهم المقام إلا يوماً أو بعض يوم، وكل ما معهم من آلة الصيد هي القسي والبندق[(3)]، وكانت الرسائل التي تصف هذه الرحلات تسمى "قدمات البندق" على حد قول القلقشندي ولشهاب الدين أبي الثناء محمود بن سلمان الحلبي رسالة في صيد البندق يبدؤها محدثاً عن شرف رياضة الصيد ونبلها، ثم يعطف إلى وصف الأمراء الذين خرجوا للصيد ومعهم قسيهم وبندقهم، فيحدثنا عن هذه الآلات ما شاء له خياله، وما أمدته فنون القول[(4)]:" ومعهم قسيهم كالغصون في لطافتها ولينها، والأهلة في نحافتها وتكوينها والأزاهر في ترافتها وتلاوينها، بطونها مدكة، ومتونها مدرجة، كأنها كواكب الشؤلة في أعطافها، ولبنادقهاالحواصل أوكار، إذا انتضيت لصيد ذهب من الحياة نصيبه، وإن انتصبت لرمي بدالها أنها أحق ممن يصيبه، ولعل ذاك الصوت زمر لبندقها أن يبطئ في سيره، أو يتخطي الغرض إلى غيره، أو وحشة لمفارقة أفلاذ كبدها، أو أسف على خروج بنيها من يدها، على أنها طالما

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص171.

(2) عاشور، مصر في عصر المماليك البحرية، ص131-132.

(3) أمين، المجتمع المصري، ص 320.

(4) المصدر نفسه، ص320.

نبذت بنيها العراء، وشفعت لخصمها التحدير بالإغراء...ومن البنادق كرات متفقة السرد، كأنما جنت من العنبر الورد، تسري كالشهب في الظلام، وتسبق إلى مقابل الطير مسدوات السهام[1]،

وتمضى الرسالة في وصف عملية الصيد، فيها عصابة من طير مختلف أجناسه، يحثها القدر إلى مصرعها، وها هم الأمراء كل في مكانه متحفز، وها هو بندق الأمير الأول ينطلق فيهوي بطائر من طيور التمام أبيض الريش أسود المنقار، طويل العنق، سريع اللفتات، وحين سقوطه يهلل الجمع مكبرين[2]:" فسرت علينا من الطير عصابة، أطلتها من اجنحتها سحابة، من كل طائر أقلع يرتاد مرتعا، فوجد ولكن مصرعا، وأسف يبتغي ماء جما، فوجد ولكن السم منقعاً، وحلق في الفضاء يبغي ملعباً فبات هو وأشياعه سجداً لمحاريب القسي وركعاً، فتبركنا بذلك الوجه الجميل، وتداركنا أوائل ذلك القبيل، فإستقبل أولنا تمام بدره، وعظم في نوعه وقدره، كأنه برق كرع في غسق، أو صبح عطف على بقية الدجى عطف نسق، تحسبه في أزداف المنى غرة نجح، وتخاله تحت أذيال الدجى طرة صبح، عليه من البياض حلة ووقار، وله كدهن عنبر فوق منقار من فار، له عنق ظليم، والتفاتة ريم ... فأرسل إليه عن الهلال نجماً فسقط منه ما كبر بما صغر حجماً، فأستبشر بجناحه، وكرعند صياحه، وحصل في وسط الماء بجناحه"[3].

وتتهاوى الطيور واحداً إثر أخر، ويشارك كل من الأمراء في صيد الطيور، فهذا، "كُي" تقاربه "إوزة"، ومنها ما هو سريع النفار كالكركي، لذلك فهو محتاج من الصائد إلى الحذر والحيطة، وإلا فر منه، فهذا الأمير[4]:"التاسع قد مر به كركي طويل الشفار، سريع النفار، شهي الفراق، كثير الاغتراب، يشتد بمصر ويصيف بالعراق، لقوادمه في الجو حفيف، ولأديمهِ لون السماءِ طرأ عليه غيم خفيف تحن إلى صوته الجوارح، وتعجب من قوته الرياح البوارح، له أثر حمرة في رأسه

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى،ج14، ص291-292.

(2) أمين، المجتمع المصري، ص321.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى،ج14، ص293.

(4) أمين، المجتمع المصري، ص322.

كوميض جمر تحت رماد، أو بقية جرح تحت ضماد، أو خص عميق سفت عنه بقايا ثماد، ذو منقار كسنان، وعنق كعنان...فصبر له حتى حازه مجلياً، وعطف عليه مصلياً، فخر مضرجاً بدمه، وسقط مشرفاً على عدمه، وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون، وأصابه القدر بجبة من حمأ مسنون، فكثر التكبير من أجله، وحمله على وجه الماء برجله[1]".

يمكن القول بأن الرسالة السابقة هي صورة حية لرياضة الصيد التي تعتمد على البندق، وتعطينا فكرة كاملة عن هذه الرياضة وأداتيها، وهي جانب من جوانب اللهو في المجتمع المملوكي قاصر على المماليك لم يكن يشاركهم فيه سواهم

ومن وسائل التسلية والترفيه التي شاعت في الدولة المملوكية اللعب بالكرة[2] التي اهتم بها السلاطين والأمراء وزاولوها بأنفسهم في مواسم معينة على ظهور الخيل، وخصصوا لها في كل نيابة ميداناً خاصاً، وأوقاتاً معينة تلعب بها، وعينوا لها موظفين بهدف الإشراف عليها ويسمى الواحد "الجوكندار" وهو الذي يحمل العصا التي يتم قذف الكرة بها[3]

وتعد لعبة "القبق" من وسائل التسلية والترفية في الدولة المملوكية وكانت في البداية عبارة عن خشبة عالية مثبت على رأسها دائرة فيقوم المتسابقون برمي النشاب وسط هذه الدائرة، ثم استبدلت هذه الدائرة، بكرة من الذهب أو الفضة ويكون داخلها طائر حمام ويقوم المتسابقون برميها من على ظهور الخيل، والذي يصيب بالكرة الطائر يحوز على قصب السبق، ويفوز بإنعام سلطاني [4]

وتعد لعبة الشطرنج من وسائل التسلية والترفية التي انتشرت بين مختلف عناصر سكان المجتمع المملوكي، فلعبها السلاطين والأمراء والتجار والفقهاء وعامة الناس، وهناك لعبة أخرى تسلى بها الفضلاء في مجالسهم وسمرهم، وتفصيلها أن يجلس جماعة ويكتبون أوراقاً في بعضها صورة شخص صاحب متاع وفي بعضها الأخر صورة لص فتوزع الأوراق فإذا وقعت الورقة التي فيها صاحب المتاع

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى،ج14، ص297

[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص54-55

[3] عاشور، مصر في عصر المماليك البحرية، ص130-131

[4] المصدر نفسه، ص131، حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص476-477.

لأحدهم قال: يا جماعة ضاع لي كذا وكذا وأريد فلاناً يحضر لي اللاص، وفيما عدا هذه الوسائل، كثيراً ما جلس الناس للحديث وسرد نوادر جـحا، أو أحكام قراقوش، أو سيرة الأبطال والفرسان، كعنترة وأبو زيد الهلالي[1].

وتسلى الناس بمشاهدة ألعاب اتخذت طابع المقامرة مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش وهراش الديوك فيراهن من الشخص على هذا الطير أو الكبش أو الديك، فإذا فاز كسب الرهان، ويدخل في هذا النوع من الألعاب لعبة رفع الأثقال والملاكمة والمشابكه ؛ إذ كانت هذه الألعاب تتم بطريق المقامرة والرهان[2]، وتصور لنا بابة. ابن دانيال"المتيم والضائع التيم" طبيعة مناقرة الديوك فيقول زيهون أحد شخوص البابة:" وأحسن ما تفرج عليه السوقة و الملوك، مناقرة الديوك، لأنها مناصله ومناضلة،ومقاومة ومنازله، وهذان الديكان قد وقفا للاصطدام، وأصرا على الإقدام، فمن هرب من النقار، والتجأ إلى الفِرار، وجب عليه ما تقرر وليس بعار إذا عاد المغلوب[3]."

وعلى هذا النسق كانت تسير مناطحة الكباش، يقول المتيم بعد أن هزم ديكه:" ولئن هرب ديكى من صياح، فدونك كبشي للنطاح، وكل لاعب يعرف كبشي كأنه الاسد الوحش، يكاد ينطح البروج، ويهدم بقرنيه سد يأجوج ومأجوج[4]" وقد اهتم بعض الناس بتربية الحيوانات لتعليمها ألواناً من الأصوات والحركات ليشاهدها الناس للتسلية[5] كالدبابة الذين يلعبون مع الدببة، والقردة الذين يلعبون مع القرود[6].

ومن وسائل التسلية خروج الناس إلى الحدائق والمنتزهات والبرك التي حفلت بها الدولة المملوكية، حيث كانت تقام لها الأسواق ويباع إليهم أنواع الأكل فيختلط الناس في غير كلفة أو حجاب [7].

---

(1) عاشور، المجتمع المصري، ص107.

(2) المصدر نفسه، ص106.

(3) ابن دانيال، خيال الظل، ص242.

(4) المصدر نفسه.

(5) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج1، ص335.

(6) عاشور، المجتمع المصري، ص106-107.

(7) المصدر نفسه، ص102-103.

وحظي الغناء باهتمام المماليك والناس عامة كوسيلة من وسائل التسلية والترفيه، ومما جعل للغناء أهمية في ذلك العصر تشجيع السلاطين لمجال الطرب وإغداقهم على المغنين والمغنيات، مما أدى إلى انتشار المغنين والمغنيات والعازفين على الآلات الموسيقية في ذلك الوقت [1] واهتم السكان بالغناء والمغنين فكانوا يستقدمون المغنيات في أفراحهم مثل الزواج، والختان، والولادة مقابل مبلغ معين من المال؛ لذلك فرضت الدولة ضريبة سميت "ضريبة المغاني" وظلت هذه الضريبة حتى ألغيت فيما بعد[2]

ومن وسائل التسلية والترفية خيال الظل، الذي انتقل من الهند إلى الصين ومن الصين إلى بلاد العالم الإسلامي [3]، وهي عرائس وصور من الجلد أو الورق المقوى تحرك على شاشة بيضاء ليراها المشاهدون من الجهة الأخرى ويحركها وينطق بها أشخاص ذوي معرفة[4]،ومسرح خيال الظل يتكون من حاجز خشبي بعرض الصالة يفصل المشاهدين عن العارضين، ويرتكز على الأرض ويرتفع بعلو السقف أو يكون على ارتفاع متر ونصف من الأرض، فتحة طولها متر وعرضها متر ونصف المتر مثبت عليها قطعة قماش بيضاء شفافة، ويحرك العارضون العرائس والدمى بعد إطفاء الأضواء، وإضاءة مصباح زيتي خلف الحاجز الخشبي حيث يقوم العارضون بتقديم باباتهم[5]

4.3 الأعياد والمناسبات والاحتفالات

كانت الدولة المملوكية تحتفل بالأعياد الدينية كعيد الفطر وعيد الأضحى حيث يخرج السلطان للصلاة بالمسجد الذي أنشأه، أو بغيره من المساجد ويكون بصحبته

---

(1) البقلي، محمد قنديل، الطرب في العصر المملوكي، الهيئة المصري العامة للكتاب، القاهرة، ط1984،1،ص16.

(2) عاشور، المجتمع المصري، ص103-104؛ غوانمة، تاريخ الحضاري، ص148.

(3) عاشور، المجتمع المصري، ص105.

(4) عاشور، المجتمع المصري، ص105؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج1، ص335.

(5) حمادة، إبراهيم، خيال الظل والتمثيليات، ابن دانيال، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ط1961،1، ص14-16.

القضاة والأمراء وأعيان الناس، وبعد عودته لقصره يصعد القوم لتهنئته فيهب خلعة لمن يريد.

وكان من العادة أن ينزل الوزير في يوم العيد إلى داره في موكب حافل، فيركب بغلته، ويضع على رأسه طرقة بيضاء، وتحت عمامته "عرقية" مذهبة تسمى الطاسة ويتقلد سبحة بأكبر من العنبر[1].

وأما الأعياد فيستعد الناس لها، ويغالون في عيد الفطر في إعداد الكعك والحلوى ليتبادلوا بها التهنئة، أما في عيد الأضحى فيتبارى الناس في ذبح الأضاحي[2] وقد اعتادوا الخروج إلى أماكن خاصة بحلول العيد ومعهم نساءهم وأولادهم ولاسيما الأعياد الإسلامية، وذلك من أجل الترفيه عن النفس، وأخذ قسط من الراحة.

ورأس السنة الهجرية من الأعياد الدينية التي احتفل بها المجتمع المملوكي، ويحتفل به في مقدمة محرم، حيث يوسع فيه على الناس، وتكثر به الصدقات، ويتبادل التجار والعلماء وعامة الناس التهاني، ويخرج الخليفة والقضاة الأربعة إلى السلطان للتهنئة بالعام الجديد، وبهذه المناسبة يخصص السلطان أرزاقاً وعطايا وخلعاً لأصحاب الرواتب[3].

ويعد يوم عاشوراء من المناسبات الدينية في العصر المملوكي، وكان من عادة الموسرين أن يتوسع في الصدقات، وإقامة المآدب للفقراء، وتمسك الناس بعادات خاصة يوم عاشوراء مثل: طبخهم الحبوب، وزيارة القبور، وشراء البخور لأنه يبرئ من العين في ذلك اليوم، كما حرص الشيعة على إقامة عزاء الحسين بن علي، رضي ا عنه، فينشد الشعراء قصائد الرثاء، وفي الوقت نفسه يناظر شعراء السنة شعراء الشيعة، كما تخرج النساء الشيعة وقد كحلن العيون وخضبن الأيدي بالحناء.[4]

---

[1] سليم، عصر سلاطين المماليك، ج7، ص331.

[2] عاشور، المجتمع المصري، ص189.

[3] المصدر نفسه، ص176-177.

[4] المصدر نفسه، ص177-178

وفي ربيع الأول تحتفل الدولة المملوكية بعيد المولد النبوي، وقد حرص المماليك على أن يحتفلوا احتفالاً تكتنفه العظمة والفخامة، ويشارك به السلطان والأمراء وعناصر السكان العامة، ويوزع الأغنياء فيه على الفقراء الصدقات والأموال، وينتفع بالمناسبة القراء والوعاظ والمنشدون والسامعون من العطايا، وتوزع الصدقات والأطعمة والحلويات والأشربة على الناس جميعا[1].

ومن المناسبات الدينية التي تحتفل بها الدولة المملوكية مواسم الحج وهو من أجل المناسبات التي ينتظرها الناس[2]. ومن مظاهره إعداد المحمل والخروج به إلى الأقطار الحجازية، والمحمل هوجمل تحمل عليه كسوة الكعبة من الحرير المطرز بالذهب يزين بأبهى زينه، ويعين السلطان له اميرأ يصحبه عدد من الجنود ويخرج بصحبته عن الحجاج [3].

ويحتفي الناس بعرض المحمل حفاوة بالغة، فينادى قبل موعده بثلاثة أيام.فيزين الناس حوانيتهم ودورهم بالمنسوجات الملونة والقناديل والشموع، وفي الليله المحددة يحرق النفط وتعمل الصواريخ عند ئدٍ توضع الكسوة على الجمل، ويبدأ الموكب بالمسير، وبهذه المناسبة يقوم طائفة من الجنود باللعب بالرمح التي تنم عن فروسية، وهم في ملابس حمراء[4].

و كان رمضان من أجمل المناسبات الدينية التي يحتفل بها المجتمع المملوكي، فإذا اقترب هذا الشهر استعرض السلطان من في السجون من المسجونين، فيأمر بإطلاق سراح بعض المسجونين، ويتلمس أحياناً بعض أهل الديون فيقضي ديونهم، وقد يجمع بين المتخاصمين فيصلح بينهم، ويعد كبار الموظفين كميات من اللحم والغنم والدقيق والسكر لتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، ويجود بذلك السلطان والأمراء وذوو الجاه والأعيان وعامه الناس كل منهم حسبما تقضي به الظروف والمعيشية [5].

---

(1) عاشور المجتمع المصري، ص178-180

(2) الحجي، أحوال العامة، ص223.

(3) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج7، ص334.

(4) عاشور، المجتمع الصري، ص181-182.

(5) سليم، عصر سلاطين المماليك، ج2، ص333-335، ج7، 330.

وقد جرت العادة في هذا الشهرعلى العناية بقراءة الأحاديث النبوية صحيح البخاري بين يدي السلطان، ويحضره طائفة من القضاة والفقهاء، ويكون ختام الصحيح في يوم مشهود يجتمع فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأعيان والفقهاء، ويقبل السلطان في أبهة، فيجري الختام على مسمع منه، ثم يأمر بتفرقة الخلع السلطانية والهبات المالية[1].

أما عامة الناس فقد كثرت اجتماعاتهم وزياراتهم في رمضان، وعمد بعضهم إحياء رمضان في المسجد بقراءة صحيح البخاري، أو بالذكر، أو بالصلاة، وعند ختم القران بأحد المساجد يحتفل به احتفالاً كبيراً، فتقرأ القصائد ويجتمع المؤذنون ليكبروا جماعة ثم يؤتى بفرس أو بغلة ليركبها القارئ الذي قرأ الختمة، ويزف إلى بيته في موكب وأمامه يقرأ القراء، ويكبر المؤذنون، ويذكر الفقراء، وأحيانا أضاف بعضهم ضرب الطبل والدف والأبواق.[2]

واعتاد الناس الاحتفال بليالي الوقود وهي ليالي في العام الهجري تكون في ليلة رجب، وليلة النصف من شعبان، وليلة الإسراء والمعراج، ويحتفل بها احتفالاً دينياً، ويزاد في هذه الليالي وقود القناديل، وتزداد الشموع، ويكثر شراء الحلوى وتوزيعها على غير القادرين، والأطفال، والأقارب، وتوزع الهبات والعطايا على المحتاجين، ولا تزال هذه الاحتفالات حتى الآن.[3]

ومن المناسبات القومية التي يحتفل بها المجتمع المملوكي تولية السلطان الجديد قبل البدء في دفن السلطان القديم، فجرت العادة عند خلاء العرش من سلطانه، أن يتشاور الأمراء فيما بينهم، ثم يختارون أحداً للولاية، فإذا تم الاختيار ووقع الاتفاق عليه، أقيمت حفلة لتنصيب السلطان الجديد، فيجتمع الخليفة والقضاة والأمراء وكبار موظفي الدولة والجنود، ويكتب تقليد للسلطان بالسلطنة، ويتلى في هذا الحفل على لسان الخليفة، فيخلع الخليفة على السلطان خلعة سوداء، وعمامة مرقومة الطرف بالبياض ويقلده سيفاً، ويقدم إليه فرساً، ثم يتقدم الخليفة فالقضاة

---

[1] المصدر نفسه، ج2، ص333-335؛ عاشور المجتمع المصري، ص184-186.

[2] عاشور، المجتمع المصري، ص188.

[3] المصدر نفسه، ص183-184.

فالأمراء بمبايعة السلطان الجديد، وبعد ذلك يركب السلطان الفرس، ويسير وسط الجموع راكباً، والوزير بين يديه على فرس حاملاً عهد السلطان الذي كتبه،وجميع الأمراء مشاة، فيتوجه الموكب إلى قلعة الجبل، وفي القلعة تمد الأسمطة للأمراء والحضور.[1]

واعتاد الناس أن يظهروا لسلطانهم ابتهاجهم وفرحهم إذا من ا عليه بالشفاء بعد المرض، فيحتفلون احتفالا كبيراً بالقلعة، وبسائر بيوت الأمراء وعندما يطلع الأمراء لتهنئة السلطان يتخلقون جميعا بالطيب، فيخلع السلطان عليهم خلعة كما يقيم لهم الأسمطة، إما عامة الناس فيسارعون إلى إقامة الزينة ابتهاجاً بشفاء سلطانهم.[2]

ومن احتفالات المجتمع المملوكي الاحتفال بالزواج، الذي من عاداته أن يمهر الخاطب والد عروسه قبل عقد القران، فما أن يتم العقد إلا ويتهافت الجميع من أجل تقديم النقوط إلى العروسين أو إلى والديهما، وتطلق البخور ويرش ماء الورد على الحضور[3]،وكانت احتفالات الزواج من الاحتفالات التي يبالغ بها القوم، وكانت مجالا لمهرجانات تستمر أياماً، وهناك تقاليد للزفاف، وتقام من أجله الولائم والاحتفالات[4].

ويعد الختان مناسبة للاحتفال في المجتمع المملوكي، فتقام له الحفلات، وكلما عظم مركز أهل الحفل عظم اهتمام الناس بهم، وربما تزين وجوه المنازل والحوانيت المجاورة لمنزل الأسرة المحتفلة، وتوقد الشموع والقناديل، ويقبل المدعوون للتهنئة، وتقدم الهدايا، ويغني المغنون، وتمد الموائد، وتقدم الأطعمة والحلويات [5].

---

(1) عصر سلاطين المماليك، ج2، ص327-328؛ عاشور، المجتمع المصري، ص192-194، ماجد، نظم دولة، ص150-152.

(2) عاشور، المجتمع المصري، ص194-195.

(3) أحمد، المجتمع الشامي، ص209.

(4) ماجد، نظم دولة،ص 167.

(5) أحمد، المجتمع الشآمي، ص256؛ سليم، عصر سلاطين المماليك، ج2، ص242؛ عاشور، المجتمع المصري، ص124-125.

ويحتفل المجتمع المملوكي بولادة الطفل، فإذا وضعت الأم مولودها أقبلت عليها النساء يزغردن ويرقصن مع ضرب الدفوف، وتقام الولائم التي يدعو إليها الأهل والأصدقاء، وقد جرت العادة بأن يحتفل أهل المولود في اليوم السابع بإقامة وليمة كبيرة، وقد يحضر في تلك الوليمة قيان يغنين ويرقصن للنساء، ويحضر كل مدعو الهدايا للأبوين[1].

5.3 مظاهر الفساد في المجتمع

كانت الرشوة من أهم مظاهر الفساد التي أصابت المجتمع الشامي والمصري في عصر المماليك، وهي دلالة على التدهور والفساد في جهاز السلطة وأصبحت كظاهرة اجتماعية مورداً من موارد بعض الأمراء وموظفي الدولة، وبالتالي من موارد الدولة.[2]

وقد أشار القرآن الكريم إلى الرشوة بكلمة شديدة تدل على عدم الرضى، وبيّن أن تقديم الرشوة أمر محظور شرعاً، فقد ورد في سورة البقرة: { ولا تأكلوا أموالكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون }.[3]

وتغلغلت الرشوة في الدولة المملوكية الأولى بين الحكام والمحكومين، فتعرضت الوظائف الديوانية للرشوة، فشاعت بين أمناء السر، وبين كتاب الدست وكتاب الدرج، ونظار ديوان الجيش، ونتيجة ذلك اضطر هؤلاء للعمل تحت الخوف من العزل والطرد أو السجن في حالة العجز عن تلبية رغبات السلاطين من الأموال والهدايا التي لابد منها لضمان استمرار الوظيفة[4]،وسرت الرشوة في الوظايف

---

[1] عاشور، المجتمع المصري، ص123-124.

[2] أحمد، أحمد عبد الرازق، البذل والبرطلة، زمن سلاطين المماليك الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1979، ص5.

[3] سورة البقرة، آية 188.

[4] ابن الوردي، المختصر في اخبار البشر، ج4، ص44.

الدينية خاصة القضاء ووكالة بيت المال والحسبة، فاأدى ذلك إلى تدهور تلك الوظائف[1].

وأسباب هذه الظاهرة تعود إلى الانحلال الخلقي لموظف الدولة بالإضافة إلى العامل الاقتصادي نتيجة الحروب الكثيرة وموجات القحط والأوبئة والغلاء التي شهدتها البلاد، وهذه أضافت أعباءً اقتصادية على الدولة فتزايد قبول السلاطين للرشوة على الوظائف المختلفة بهدف ملىء خزانتهم وخزانة الدولة بالأموال، فقبلوا الرشوة من الناس الذين سعوا للوصول إلى الوظائف في الدولة.[2]

ويعد الزنا من مظاهر الفساد التي انتشرت في عصر المماليك، فقد اعترفت الدولة بالبغايا ففرضت عليهن ضرائب مقررة، مما كان يدر على الخزينة الكثير من الأموال، كما قامت الدولة بتعيين ضامنة للبغايا تذهب إليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها عندها، لكن هذه

الظاهرة لم تكن عامة عند سلاطين المماليك بل إن بعضهم كالسلطان بيبرس أخذته حمية الدين لمنع هذه الظاهرة، فمنعها في القاهرة وسائر البلاد الشامية، كما حبس البغايا حتى يتزوجن.[3]

وشاعت الخمور كمظهر من مظاهر الفساد في عصر المماليك بين السلاطين والأمراء وعامة الناس[4]، واعتاد الأمراء أن يتهادوا بها في الأفراح، وقد بلغ ما استهلكه أمير من الأمراء خمسين رطلا في اليوم الواحد، وإذا احتاج أحد السلاطين أو الأمراء إلى كمية كبيرة من الخمر لحفل أو ظرف طارئ، وزعوها على النصارى واليهود المعروفين بصنعها، لكن بعض سلاطين المماليك عملوا على منع الخمور وأراقوها في الشوارع، وحرموا تعاطيها في مختلف أنحاء البلاد[5]، ومن

---

[1] عاشور، المجتمع المصري، ص233-234.

[2] أحمد، البذل والبرطلة، ص131-137.

[3] عاشور، المجتمع المصري، ص227.

[4] أمين، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الاول 648هـ/784هـ، دار المعارف، مصر 1982، ص337.

[5] عاشور، المجتمع المصري، ص231-233.

ذلك ما أصدره الظاهر بيرس سنه 665هـ بالتشديد على شاربي الخمر، وقد أمر بإراقة الخمور وكسر أوانيها، وإغلاق الحانات في مصر والشام[1]،

ووصف" ابن دانيال" في بابتة" طيف الخيال" وضع البلاد وهي غارقة في المجون وشرب الخمر،والخوف من القوانين الشديدة التي سببت الشنق، فيقول: " السلام عليكم، أيها السادة... وفي القهوة سلوة الأحزان، لولا خفة الميزان ومطاوعة الشيطان، وعصيان السلطان، وحدة الحدود[2]، والأخذ من النصارى واليهود[3] من أجل ذلك عدل حال السودان إلى أسكرة_الذرة، وأكثروا الدخول إلى المعصـرة، وأغـلقوا هـذا الباب وفتحوا أبواب الوان شتى من المزور[4]والطبطاب اللعب بالكرة، واستغنوا بالفأر المطجن عن الفرخ المسمن، وشاركوا

الخمارين على المرة، وقنعوا بالفتيتة[5]عن الخماسية والجرة[6]، ولا كصفاعية[7] الحرافيش[8]، الذين عرفوا سر الحشيش، لأنهم ذاقوا بها لذة الكسل، وهربوا من نصب العمل، وزعموا أنها تفعل في معدة الممعود فعل القرض[9] في الجلود، فاستغنوا بذلك عن العقار وعن معاقرة العقار، فأكلوها في الأسواق والمشاهد، وهاموا في الطلب الرقص والمشاهد، إلا إنني من حين توبتي من هذه الخصال، وتوديعي لاخر وصال، ورجوعي من الموصل الحدباء إلى الديار المصرية في الدولة الظاهرية- سقى ا عهدها وأعذب في الجنان وردها – وجدت تلك الرسوم دارسة، ومواطن أنسها عافية الآثار، ساقطة الجد بالعثار[10]، وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان، فتابت البغايا و الخواطي، وتأذىالفلاح غاية الأذية، وصلب نباذ في

---

[1] ألتونجي، محمد:التيارات الأدبية أبان الزحف المغولي،ط1 دار طلاس، دمشق،1978،11

[2] جمع حد : العقاب

[3] تقليدهم لأنها غير محرم عندهم

[4] شراب حلو مسكر

[5] وعاء صغير

[6] وعاءان كبيران

[7] من يصفع بعضهم البعض

[8] الأخلاط

[9] القطع

[10] سئية الحظ

عنقه نبانذته[1]وشاعت الأخبار وانكسر الخمار وانطحن المزار[2]، وانزوى المسطول في القرنة الغبراء، ودعاني بعض الأخلاء الى محله، وانزلني بين قومه وأهله، واعتذر إلي من تقصيره في إكرامي، لاقتصاره في الضيافة إذ لم يأت بمرامي وقال: غلب علي ظني أن أبا مرة[3]قد مات، وعد من جمله الرفات[4]" يدل النص السايق على شيوع الفساد المتمثل بشرب الخمر والحشيش بين الناس عامة وما إلى ذلك من افانين الفحش والإباحة التي عمت بين الناس، وهذا ما دعا الظاهر بيبرس لأن يقسو عليهم ويشتد في التنكيل بهم في مصر والشام.

وقد كثرت وسائل الخلان والندمان في وصف الخمر ومجالس النشوة، وفي ذلك ما كتبه بدر الدين ابن الحاجب من رسالة في وصف خمرة في مجلس طرب، وبعث بها إلى الوزير فخر الدين بن مكناس، جاء فيها:

"هل لك – بسط ا آمالك، وضاعف نعيمك ودلالك – في عذراء مصونة كالدرة المكنونة فتانة مفتونة، كأن على خدها فوق وردة ياسمينة، مخدرة تدهش العقول لمجتلاها، وتعشى العيون لضوء سناها، مظلومة الريق في تشبهه بالضرب، وفي اللثات وفي أنيابها شنب، لها من ذاتها طرب يغنى من المزامير، بلقيسية الجمال، لها صرح ممرد من قوارير، ضرة للشمس، تلبس زي البدور، ليلين ويطرب بها عيش السرور .ليلها من حسنها نهار، وضوء وجهها ليد لامسها سوار .عجوز الاسم، صبية الاستمتاع، بكر تستخف الحليم بكشف القناع،تعصبت بالدجى طيبا،وتلثمت بالصباح،وتلاطفت حتى مازجت الأرواح. كريمة الأصل والفعال. حسنة المعاني والخصال، أديمها كلما تعتق يغلو، ووردها كلما مر يحلو. يخلع الوقور في حبها العذار. ويطيعها بالسعد فلك اللهو الدوار، ثملة المعاطف تقهقه قهقهة الرعونة، كأنما خلقت نشوانة من الطينة. ويزداد ثغرها طيبا في ساعة السحر، وتعرف عينها المخفية بحسن الأثر. حديثها السحر الحلال، وعتيقها خلع الدلال. أيامها أعياد،

---

[1] وعاء يوضع به النبيذ

[2] صانع الخمرة

[3] بليس

[4] الأشياء المفتتة

وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد. تطيب عيش الحلاس وتدرك أدر الوسواس. من القاصرات الطرف في كل قصر، وهي على الإطلاق ذهبية العصر، رومية لها بالكيمياء معرفة، مع انه بإدراك المعارف متصفة. فتارة تقلب الأحزان أفراحا، ومرة تكتال لك الذهب أقداحاً، نديمها يجد في تخاييلها المملكة، ويكاد أن يمد على الدنيا من لؤلؤ حباتها شبكة. قينة كأنما غنت الفلك فنقطها بالنجوم، فارسية تخلقت بعد أن تقمصت ببياض النجوم تجمع شمل الأحباب،وتهذب الأخلاق الصعاب. لو خالطها جبل الماس. أو قابلها جماد لقيل إنه ناس. أو قتلت ندماءها لما نسبت إلى إياس، ولقال لسان حالهم. وفيها منافع للناس. وتلاطفت حتى كأن رائيها سامع يطيب ويطرب. وحتى يكاد يأكل بالضمير ويشرب. تغايرت الاستقصاءات على شكلها النوراني. وما نفثت في خلقها الجثماني والروحاني، فلم يجد الطير له فيها مدخلاً، لكن قنع منها تطفلاً. على انه وارثها بالتعصب. وقل جدها للأم بلا تثريب. أنفاسها مسكية، وطبائعها برمكية، ومكارمها حاتمية وأنسامها قيصرية. بكر بخاتم ربها، وهي ترضع أباها من حلبها، فتعد الشيخ صبياً، والمشغول خلياً، فكأنها استعارت الإرضاع من أمها التي لها ثدى كالنجوم عدة، وتعلمت منها المكارم، لما رأت أكفها بالندى ممتدة . غانية، طعم الحياة في ريقها، وضيق الموت في مباينتها وتطليقها. لا تنزل الحوادث ساحتها، ولا يعرف التعب من صافح راحتها. حمـراء تخلع ثوبـها علـى الندمان، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان. لا ينهض البليغ بوصفها. فالعجز عن إدراك لطفها إدراك لطفها [1] ".

ويعد الحشيش من مظاهر الفساد في المجتمع المملوكي[2]، وقد شاعت هذه الظاهرة، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعاً كثيراً، وقد فرض على الحشيش ضريبة تمد الدولة كمية كبيرة من الأموال، وتفشت هذه الظاهرة في مختلف العناصر السكانية كالعلماء، والقضاء، ووصل القضاة إلى حد الإفتاء بإباحة أكلها، لذلك نظم بعض أدباء العصر أشعاراً الغرض منها إيضاح مزايا الحشيش وتفضيله

---

(1) الغزولي، مطالع البدور،ج1، ص152

(2) أمين، المجتمع المصري، ص351.

على الخمر[1]، ويشير محي الدين بن عبد الظاهر إلى هذا الأثر السيء في رسالته التي كتبها في إبطال الحشيش بعد الخمر، وذلك إذ يقول فيها:" يعلم أن المنكرات التي أمرنا أن تملأ الصحائف بأجرها وتفرغ الصحاف، ألا يخلو بيت من بيوتها من كسر أو زحاف. قد بلغنا الآن أنها احتضرت، وأن كلمة الشيطان بالتعويض عنها قد نصرت، وأن أم الخبائث ما عقمت، والجماعة التي كانت ترضع ثدي الكأس قد أرتعت بعد ما فطمت، وأنها في النشأة ما حبب إبليس مسعاها، وأنها لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر اخرج لها من الحشيش مرعاها، وأنها استراحت من الخمار، واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه بدينار، وان ذلك فشا في كثير من الناس، وعرف في عيونهم ما يعرف في الإحمرار في الكأس وصاروا كأنهم خشب مسندة، سكرى، وإذا مشوا يقدمون لفساد أذهانهم رجلا ويؤخرون أخرى ونحن نأمر بأن تجتث أصولها وتقتلع، ويؤدب غارسها حتى يحصد الندامة مما زرع، وتطهر منها المساجد والجوامع، ويشهر مستعملها في المحافل والمجامع، حتى تتيه العيون من هذا الوسن وحتى لا تشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن[2]".

تبين هذه الرسالة إقبال الناس على الحشيشة بعد تحريم الخمر لرخص ثمنها، وتصف ما تفعله الحشيشة بمدمنها من تخدير حتى يمشي مختلط الفعل، مرتعش الخطو، كمـا تشير
هذه الرسالة إلى أن الناس كانوا لا يتورعون عن تعاطي هذا المنكر في الجوامع والمحافل[3].

ويشير السبكي إلى هذه الظاهرة وتفشيها بين المتصوفة فيقول:" فهؤلاء القوم إذ اتخدوا الخوانق ذريعة للباس الزور، وأكل الحشيش، والانهماك على حطام الدينا،لا سترهم ا ، وفضحهم على رؤوس الاشهاد[4].

---

[1] عاشور، المجتمع المصري، ص229-230.

[2] لبن جحه الحموي، ابن المحاسن تقى الدين أبو بكر بن علي بن عبدا (ت837هـ/1434م)، ثمرات الأوراق، المطبعة الوهبية، مصر، ص137، 1882

[3] أمين، المجتمع المصري، ص352.

[4] السبكي، صعيد النعم،ص125

وقد أقبل عليها الناس نتيجة لرخص ثمنها، ولعدم وجود نصوص إسلامية على تحريمها كما نصت على تحريم الخمر، ومع ذلك تشدد بعض السلاطين في محاربة الحشيش، وتعقب مدمنيها، مما لها من أثار سيئة إذ تنهك القوى وتضعف الصحة[1].

وشاعت ظاهرة الشذوذ الجنسي [2]، حتى عمدت النساء إلى التشبه بالذكور في ملبسهم ليستملن قلوب الرجال، وبلغ استفحال هذه الظاهرة أنّ أحد السلاطين عرف بحبه للنساء فقيل فيه: إنه لم يكن له هوى بالشباب، ويروى أن أحد أبناء السلاطين شغف بغلام وهام فيه، وانتشرت هذه الظاهرة بين رجال القلم ورجال السيف وبقية العناصر السكانية[3]، وتمثل هذه الظاهرة قمة الفساد ومن أسباب شيوعها وفرة الجواري، وشيوع التهتك والخلاعة بينهن فنتج عن ذلك الزهد بالمرأة ومحاولة اقتناص اللذة من جهة أخرى هذا بالإضافة إلى وجود سقاة على جانب من الجمال في مجالس الشرب[4]، ومقامة الصفدي "لوعة الشاكي ودمعة الباكي" تدور حول ظاهرة حب غلام، والاستغراق في هواه، وما شاب هذا الهوى من أسى ولوعة، فيقول الصفدي في وصف لقاء محبوبه:" فبينما نحن في هذه اللذة التي وصفت، والعيشة التي راقت وصفت، والحالة التي طابت وحات، والخلوة التي من الخيال والخبال خلت إذا جانب الروض قد سطع بالأنوار، وتتمايل السرور من المسرار، وصفق النهر طربا، وغنى الحمام وصبا، وتبسمت الأزهار فرحاً وأعجابا، وتعانقت الأغصان وبعد أن كانت غضاباً، وشممنا أرجا فاق في الأفاق على المسك الأذخر، ولولا التماسك لطار القلب من الخفقان وفر، فحدقنا لنحو تلك الحدائق لننظر

---

[1] أمين، المجتمع المصري، ص351.

[2] أمين المجتمع المصري، ص357، عاشور، المجتمع المصري، ص228.

[3] عاشور، المجتمع المصري، ص228-229.

[4] هداره، محمد مصطفى، الشعر العربي في القرن الثاني هـ، دار المعارف مصر،ط1، 1978 ص324-325.

ما هذا الارج الفائق، وإذا نحن بغلمان عدد الكواكب السيارة قد أهالوا الشمس من الهالة"[1].

ويقول الصفدي في وصف ظهور الغلام:" فبدا لي من بينهم ظبي كأنه بدر سافر أو غزال نافر، فاقهم حسنا وظرفا، وفاتهم رشاقة ولطفا، قد تقمص بالحسن، وارتدى بالجمال، وتسربل بالغنج، وتمنطق، إن تبدى أنكرت البدر في تمامة، أو تثنى لم تعرف الغصن من قوامه، أو رنا لم تدر أسحر بدا أو نصال، أو التفت، لم تذكر بعدها جيد غزال، قد أسهر العاشق بطرفه الوسنان وفتن الرافق بعده الفتان، وأطار الفؤاد على مائس غصن قده"[2].

ولعمري فهذه المقامة شهادة بالغة على الفساد والمجون الذى ساد في المجتمع المملوكي.

6.3 الخاتمة

بعد أن منّ ا عز وجل عليّ بإتمام هذا العمل، الذي منحني القدرة وتجاوز كافة الصعوبات، فله الشكر الذي يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، اولاً وأخيـراً، والصلاة والسلام على أسوتنا وقدوتنا سيدنا محمد، صلى ا عليه وسلم، وبعد :

تناولت هذه الدراسة "صورة المجتمع الشآمي في عـصر الدولـة المملوكيـة الأولـى نثـراً "، خـلال حقبـة امتـدت مـا بـين سـنين 648هـ ـ/1260م – 784هـ ـ/1382م، وقد كانت تلك الحقبة غنية بأحداثها العسكرية والـسياسية التـي أثرت على المجتمع الشآمي.

وتعد هذه الفترة من الفترات التي لم تلق العناية الكافية مـن الباحثين،وذلـك لأنهم كانوا في الغالب منهم يؤلفون عن الأحداث السياسية والحياة الأدبية، ونادرا، ما كانوا يكتبون عن أحوال المجتمع في ذلك الوقت بصورة عامة، ولكـن موضـوع دراستي تناول موضوعاً محدداً ألا وهو صورة "المجتمع الشآمي" في حقبة معينـة، وتكمن أهمية الدراسة في أنها تعطينا صورة عن الواقع الذي كان يعيشه الإنسان في

---

[1] الصفدي،صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ ـ/1363م)، لوعة الشاكي ودمعة الباكي، مطبعةالفتوح الأدبية، مصر، د.ت، ص7.

[2] الصفدي، لوعة الشاكي ودمعة الباكي، ص9.

بلاد الشام في العصر المملوكي، فهي تتحدث عن عناصر المجتمع الشآمي من حيث الترتيب الهرمي لهذه العناصر بالإضافة إلى أنها تسلط الضوء على الحياة اليومية للإنسان العادي، وما كان يقوم به من أعمال، وما هي مصادر رزقه، المظالم التي كانت تحيق به.

وعلى الرغم من عدم ورود لفظ عناصر في أمهات الكتب فإن الحديث كان عنها ضمنياً، وإن الدارس لفصول هذه الدراسة يجد أن مجتمع بلاد الشام في العصر المملوكي فيه فروق اجتماعية بين عناصره ساعد على تكوينها عدة عوامل منها المستوى الاجتماعي للفرد، والمستوى الاقتصادي، والموقع الوظيفي له وكفاءته العلمية، وبذلك فقد انقسم المجتمع الشآمي بناء على هذه العوامل إلى تسعة عناصر.

ولقد قسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول، تحدثت في الفصل الأول عن عناصر سكان المجتمع الشآمي، وانقسمت هذه العناصر إلى تسعة أقسام هي الأمراء،والأجناد، وأرباب القلم،والتجار، والحرفيون، والفلاحون، والبدو، والعشير، والمرأة؛ وحاز عنصر الأمراء على أكبر مصادر الدخل، إذ تعتبر الإقطاعات هي مصدر الدخل الرئيس للأمراء، وكانت على نوعين: إقطاعات استغلال، وإقطاعات تمليك، وينضاف إلى ذلك الإنعامات السلطانية، ونتيجة لذلك فقد تمتع الأمراء بأوضاع اقتصادية عالية حتى إن ثراء أمير واحد كان يعادل ثراء جميع العاملين في مدينة صغيرة واتسمت حياتهم بالترف والبذخ والكثير من السلبيات إلى بقية العناصر الأخرى، أما الأجناد فقد كانوا يتسلمون مرتبات شهرية.

أما العنصر الثالث وهو أرباب القلم، فكان يتألف من قسمين هما: أرباب الوظائف الدينية وأرباب الوظائف الديوانية الذين كانوا بمثابة الرابطة بين المماليك وبين بقية العناصر السكانية، وقد تلقوا لقاء أعمالهم مرتبات كبيرة أمنت لهم معيشة كانت تضاهي معيشة المماليك من حيث الرفاهية والترف، غير أن أرباب الوظائف الدينية تأثروا بالفساد الذي حل بالدولة المملوكية، ووصل الأمر بهم إلى بذل الأموال للحصول على هذه الوظائف.

والعناصر الباقية من تجار،وحرفيين، وفلاحين،وبدو، وعشير، وقد عاشوا بنفس الظروف تقريبا ما عدا البدو والعشير، إذ تعرضوا إلى مظالم المماليك، فقاموا

بالاحتجاج عليها بنفس الطرق، وظلوا دائما على أمل أن يحكم أمرهم نائب عـادل. أما البدو والعشير فقد حرص المماليك دوما على إرضائهم وكسب ودهم.

وفي الفصل الثاني كشفت الدراسة عن الوظائف والحرف في المجتمع الـشآمي التي قسمت من حيث الناحية الوظيفية، فقد تباينت هذه الوظائف في مصادر دخلها، وحاز المماليك على أعلى مصادر الدخل، ثم أخذ هذا الدخل يتناقص من عنصر إلى آخر، فوجدت هذه الدراسة أن بعض عناصر السكان كانوا يعيشون على التسول.

وفي الفصل الثالث جرى وصف بعض مظـاهر الحيـاة فـي المجتمـع المملوكي،وقد اقتصرت الدراسة على المظاهر الحياتية التالية: العـادات والتقاليـد والأزياء، ووسائل التسلية، ومظاهر الفساد، وجميع المظاهر الحياتية لمجتمـع مـا يحتاج إلى كثير من الوقت والجهد، لا تتسع لها فصول هذه الدراسة.

وعملت الدراسة لتوثيق فصولها بأسلوب يعتمد وصـفاً دقيقـاً للمـسميات الوظيفية معتمدة على المصادر الرئيسة التي أرخت هذه الفترة الزمنية، ووفرت مادة تصلح لأن نطلق الأحكام على طبيعة مجتمع الدراسة في الفترة الزمنية من خلالها.

وإذا ما أردنا أن نعطي صورة صادقة عن منطقة الدراسة في العهد المملوكي الأول فإننا لا بد لنا أن ندرسه دراسة شاملة تشمل جميع نيا بات بـلاد الـشام مـع إجراء مقارنة موضوعية بين هذه النيابات من الهيكلية الإدارية، والتنظيمية، والكفاءة العلمية، والمعايير الاجتماعية التي كانت سائدة في العصر المملوكي الأول، وكانت تتحكم بهذه المعايير بعض الأمور منها، حجم النيابة، وبعدها عن مركـز الدولـة، ومدى مساهمتها في مسيرة الدولة وتقدمها.

وللحكم على عصر ما لا بد من الولوج إلى الظواهر الاجتماعية من دراسـة وتحليل، وربطها بمسيرة الأمة من حيث معايير النجاح والفشل، وعليه كانت هـذه الدراسة استجابة لهذا الموضوع، وما زال هذا الموضـوع يحتـاج إلـى إشـباع الدارسين بحثاً وتفصيلاً لجوانب أخرى من المجتمع المملوكي.

المصادر والمراجع

القران الكريم

ابن الأخوة، محمد بن أحمد القرشي، (ت729هـ/1328م)، 1937م، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، دارالفنون، كمبردج.

ابن الجيعان، بدرالدين أبو البقاء محمد بن يحي بن شاكر بن عبد الغني (ت902هـ/1496م)، 1984م، **القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف**، تحقيق: عبد السلام تدمري، منشورات جـروس برس، طرابلس الشام، ط1

ابن الحاج، أبو عبدا محمد بن محمد العبدري،(ت 839 هـ/1435م)، 1927م، **المدخل، مدخل الشرع الشريف على المذاهب**، المطبعة المصرية، القاهرة، ط1.

ابن حجه الحموي، ابن المحاسن تقى الدين أبو بكر بن علي بن عبدا (ت837هـ/1434م)، 1882، **ثمرات الأوراق**، المطبعة الوهبية، مصر،

ابن الشحنة، أبي الفضل محمد (ت 890 هـ/1485 م) ، **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، دار الكتاب العربي، دمشق،1984

ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا العلوي (ت709هـ/1309م)، **الفخري في الآداب السلطانية والدولة الاسلامية**، المطبعة الرحمانية، مصر، 1927

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم، (ت 807 هـ/1405م) **تاريخ أبن الفرات**، تحقيق : قسطنطين الزريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الامريكانية، بيروت، 1938

ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي(930هـ/1523م)، 1984م، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتـاب، القـاهرة، ط2.

ابن بسام، المحتسب، (ت884هـ/1474م)، 1968م، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد.

ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت779هـ/1377م)، 1982م، **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تحقيق: محمد امين، الهيئة المصرية، القاهرة، د.ط.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محـمود الـشافعي، (ت 852 هـ/1448م)، 1969م، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تحقيق: حسني حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المغربي، (ت 808هـ / 1405م)، 1983م، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب، بيروت.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، (ت 808هـ /1406)، 1967م، **المقدمة**، المطبعة البهية، القاهرة ط1.

ابن دانيال، شمس الدين أبوعبدا محمد(ت711هـ/1311م)، 1961م، **خيال الظل**، تحقيق: إبراهيم حمادة، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.

أبن طولون، محمد الصالحي الدمشقي (ت 953 هـ / 1546)، 1984،**إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط2.

أبن طولون، محمد الصالحي الدمشقي (ت1546م) 1962، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان(تاريخ مصر والشام)** تحقيق محمد مصطفى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.

ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت 739 هـ/1238م) 1954، **مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع**، تحقيق: علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1.

ابن عبد الظاهر، محي الدين(ت 692 هـ/1292م): **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق عبد العزيز الخويطر،ط1، عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976

ابن عربشاه، أبي العباس أحمد بن محمد الدمشقي(ت 854هـ/ 1450م)، **عجائب المقدور في نوائب تيمور**، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1986م

ابن عساكر، ابن القاسم علي بن الحسن بن هبة ا بن عبد ا الشافعي (ت499هـ /571 م)، 1995 **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق: محيي الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروري، دار الفكر العربي، بيروت، ط1.

ابن قاضي شهبه، بدر الدين (ت 874 هـ/1469م)، 1971، **الكواكب الدرية في السيرة النورية**، تاريخ السلطان نور الدين زنكي، تحقيق: محمود زايد دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1.

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي (ت 774 هـ/1372م). 1987، **البداية والنهاية**، تحقيق : أحمد ابو ملحم، علي نجيب عطوي، فؤاد السيد، مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ/1311م)(د.ت) **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط3، 1994، مادة أمر.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي،(ت 732هـ/1331م)، 1907م، **المختصر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية، مصر، ط1.

أبو المحاسن، يوسف بن كفري بروي(ت1470) 1970 **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق: جمال محرز وفهيم شلتوت.

أبو راشد، عبدالصمد، 1993م، **طيرة الكرمل طيرة حيفا الأرض**، د.م، إربد.

أحمد، عبد الرازق، 1979م، **البذل والبرطلة** زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1.

أشتور، آ، د.ت، **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى**، دار قتيبة، القاهرة، ط1.

أمين، فوزي، 1982م، **المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الاول** 648هـ-784هـ، دار المعارف، مصر، د.ط.

باشا، حسن، 1978م، **الألقاب الإسلامية، دار النهضة العربية، مصر،** ط1.

باشا، عمر موسى، 1967م، الأدب **في بلاد الشآم عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك،** دار الفكر الحديث، لبنان، ط1.

بدر الدين محمود (ت 855 هـ/1451م**)** 1966-1967، **السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي،** تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الكاتب العربي، القاهرة .

البقلي، محمد قنديل، 1983م، **التعريف بمصطلحات صبح الأعشى،** الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط.

البقلي، محمد قنديل، 1984م، **الطرب في العصر المملوكي،** الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1.

التدمري، عمر عبد السلام، 1981م، نصوص كتابات تاريخية على عمارة طرابلس الإسلامية في عصر المماليك (المراسيم السلطانية)، **تاريخ العرب والعالم،** مجلة منتصف كل شهر،دار النشر العربية، بيروت، ع35.

التونجي، محمد،، 1978م، **التيارات الأدبية أبان الزحف المغولي،** دار طلاس، دمشق، ط1.

تيمور، أحمد، 1969م، **نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة،** لجنة نشر المؤلفات التيمورية، القاهرة، ط1.

الجواليقي، أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر(ت 540 هـ/ 1145م)، 1998م، **معجم الألفاظ الفارسية،** دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

الحجي، حياة، 1994م، **حياة أحوال العامة 678-784هـ/ 1279-1382م دراسة من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية،** دار القلم، الكويت.

حسن، علي إبراهيم، 1984م، **دراسات في تاريخ المماليك البحرية،** مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط1.

الحسين، قصي، 1987م، **لأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني،** المكتبة المصرية، القاهرة، ط1.

حمادة، إبراهيم،1961م، **خيال الظل والتمثيليات**، ابن دانيال، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ط1.

حمادة، محمد، 1980م، **الوثائق السياسيه والإدارية للعصر المملوكي** 656هـ - 922هـ، 1258م-1516م **دراسة ونصوص**، مؤسسه الرساله، بيروت، ط1.

الحنبلي، أبو اليمن مجير الدين العليمي (ت 928هـ/1521م)، 1983م، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مكتبة المحتسب، بيروت.

دهمان، محمد أحمد، 1990م، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط1.

رمضان، أحمد، 1977م، **المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية**، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، مصر، ط1.

زيادة، نقولا، 1966م، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرنكلين، بيروت.

الزيدي، مفيد، 2000م، **العصر المملوكي موسوعة العصر الإسلامي**، دار أسامة، عمان، ط1.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت 771 هـ/1369م)، 1947م، **معيد النعم ومبيد النقم**، تحقيق: محمد علي النجار، أبو زيد الشلبي، محمد أبو العيون، دار الكتاب العربي،القاهرة، ط1.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، (ت 771 هـ/1369م)،(د.ت) **طبقات الشافعية الكبرى**، المطبعة الحسينية، القاهرة.

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان (ت 902هـ / 1496م)، د.ت، **التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية**، القاهرة.

سليم، محمود رزق، 1965 **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي**، دار الماضي، القاهرة، ط1.

سليم، محمود رزق 1985، **عن سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**، دار الماضي، القاهرة، ط1، ج5

سوفاجيه، جان، **دمشق الشام لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى عهد الانتداب**، تحقيق: أكرم

السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ / 1505م) **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1968

السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص99، 165، 166؛ **تيمور،أحمد، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة**، لجنة نشر المؤلفات التيمورية، القاهرة، ط1، 1969

شبارو، عصام محمد (د.ت)، **السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري**، ط1، دار النهضة العربية، بيروت،

الشذر، طيبة صالح، **ألفاظ الحضارة العباسيه في مؤلفات الجاحظ**، دار قباء، الكويت، 1991

الصباغ، ليلى، **المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني**، وزارة الثقافة، دمشق، 1973

صبحي، لبيب، التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، **المجلة التاريخية**، المصرية،م28، م29.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت 764هـ/1362م)، 1962 **الوافي بالوفيات**، باعتناء هلموت ريتر، دار نشر فرانز شتاينر، بيفسبادن.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1363م) **لوعة الشاكي ودمعة الباكي ،** الفتوح الادبية، القاهرة.

الصيرفي، علي بن داوود، (ت 900 هـ/1494م)1971، **نزهة النفوس والابدان في تاريخ الزمان**، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة.

ضومط، أنطون خليل، 1982،**الدولة المملوكية**، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة، بيروت، ط2.

ضيف، شوقي، **أدب المماليك و الدويلات**، دار المعارف، القاهرة، ط1،

طرخان، إبراهيم، 1968، **النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1

الظاهري، خليل بن شاهين(ت 1468م) **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، المطبعة الجمهورية، باريس.

العادل، فؤاد، **المجتمع الشامي**، مديرية الثقافة الشعبية، دمشق، ط1.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، 1976،**العصر المماليكي في مصر والشام**، دار النهضة العربية، القاهرة، ط2

عاشور، فايد حماد، 1975، **العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى**، دار المعارف، مصر، ط2.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، د.ت، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1.

العبادي، أحمد مختار، 1982م، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

عباس شافع بن علي (ت731هـ/ 1330م)،1976،**حسن المناقب السرية المنتزعه من السيرة الظاهرية**، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، مكتبة الرياض، الرياض.

العريني، السيد الباز، 1967، **المماليك**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

عطية القوصي، 1975م، أضواء جديدة على تجارة الكارم، **المجلة التاريخية المصرية**، الجمعية المصرية للدراسة التاريخية، م22

العلبي، أكرم حسن، **دمشق بين عصر المماليك والعثمانين** (906هـ-922هـ/ 1500م-1520م)، 1982م دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ط1.

علي، علي السيد، 1986، **القدس في العصر المملوكي دار الفكر للدراسات والنشر**، القاهرة، ط1، الشامي، مديرية الثقافة الشعبية، دمشق، ط1

العمري، ابن فضل ا (ت749هـ/1349م)، 1992، **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق: سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، الكرك، ط1.

العمري، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى،(ت 749هـ/1349م)، 1985م، **مسالك الإبصار في ممالك الأمصار**، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، تحقيق: دوروثيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ط1.

عودات، بيضون، الناطور، أحمد، جميل، شحادة، 1991م، **تاريخ المغول**، المماليك في القرن السابع هجري حتى القرن الثالث عشر، دار الكندي، إربد.

الغزولي، علاء الدين، (ت 816هـ/1413م)(د.ت)، **مطالع البدور في منازل السرور**، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة.

غوانمة، يوسف حسن درويش، 1983، **القرية في جنوب الشام**، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، ط1.

غوانمة، يوسف درويش،1982، **تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي**، دار الحياة، عمان.

غوانمة، يوسف درويش، 1989م، **الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام**، دراسات تاريخية، تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، ع13،14.

فهمي، نقيم زكي1973م، **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب** (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المعتمدة العامة، القاهرة، ط1.

قاسم، قاسم عبدة، 1977م، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، ط1.

قاسم، قاسم عبدة، د.ت، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1.

القلقشندي، أحمد بن علي، (ت821هـ/1418م)، 1963م، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، عالم الكتب، القاهرة.

لابدوس، ايرا مارتين، 1985م، **مدن الشام في العصر المملوكي**، دار حسان، دمشق، ط1.

ماجد، عبد المنعم: 1967، **نظام الدولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر**، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

الماوردي، ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ/ 1058م) 1909، **الاحكام السلطانية والولايات** الدنية، القاهرة.

ماير، ل.أ، 1972، **الملابس المملوكية**، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة عبدالرحمن فهمي محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1.

محمد عدوان، 1987، **العسكرية الإسلامية من العصر المملوكي**، ط، عالم الكتب، الرياض.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت 845 هـ/1441م) 1956 **اغاثة الأمة بكشف الغمة**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/ 1441م)، 1997م **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تحقيق: محمد زينهم ومديحه الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1.

النابلسي، الشيخ عبد الغني النابلسي القادري، (ت 1143 هـ /1730 م)، 1902 **رحلتي إلى القدس المسماة بالحضرة الأنسية في الرملة القدسية**، مطبعة جريدة الإخلاص، مصر.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ/ 1332م) (د.ت) **نهاية الأدب في فنون الأدب**، طبعة دار الكتب، مصر.

هداره، محمد مصطفى، 1978، **الشعر العربي في القرن الثاني هـ**، دار المعارف مصر، ط1.

ياقوت، ابو عبدا ياقوت بن عبدا الحموي الرومي البغدادي (ت 626 هـ/ 1228م) 1979 **معجم البلدان**، دار احياء التراث، بيروت.

اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت 760 هـ/1358م)، 1986 **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق: أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ط1.

السيرة الذاتية

الاسم : سميرة عبد اللطيف علي ذياب
الكليه : الآداب
التخصص : اللغة العربية
السنة : الفصل الصيفي 2007
البرنامج : ماجستير في الآداب
العنوان البريدي : الكرك – المرج
الهاتف النقال:0795478250